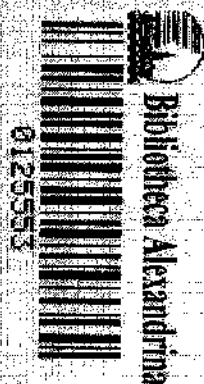


محمود تيمور

النبيُّ والإنسان

ومقالات أخرى

مستلزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعة الجامعيات ٩١٩٣٧٧
المطبعة النموذجية
٦ مكتبة الشارعية بالقاهرة الجديدة



محمود تيمور

النبي الانساني

ومقالات أخرى

مستلزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعها بالجواميز ت ٩١٩٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة السلاويك بالخاصة الجبرية

هتلى يارب! ... ابتهاال

يارب! ...

كلمة واحدة ... اذكرها ، ولا تزد عليها ، فأنت بها فى غمنية

من مزيد! ...

رطب لسانك بهذه الكلمة القصيرة ، ودع ما عداها من

كلمات طوال! ...

انس كل شيء حولك ، بل انس وجودك ، وانس عليك

وخبرتك ، وصح قائلا : يارب! ...

قلها فى صيحة صامتة ... فليس الله بحاجة إلى من يعلى

الصوت ، ويرفع النداء ...

قلها لنفسك ، ولا تسمعها أحدا غيرك ، فما انتفاعك بأن

يسمعا الناس منك ، إنما انتفاعك بأن تسمعها أنت نفسك ،

مناجاة تتجاوب أصدائها فى حنايا قلبك! ...

قلها كلمة واحدة ، وحسبك بها ، فأنه هو الكلمة الواحدة
لهذا الكون الخافل العظيم ...

قلها مرات ومرات ، لا تسأم التكرار والتريد ...
قلها في أى وقت شئت ، وفي أى مكان حملت ، سواء أكنيت في
خلوتك ، ظافرا بوجدتك ، أم كنيت في معترك العيش تخوض الزحام ..
قلها في إصرار ، في عمق ، في نشوة ...

قلها وأنت في غفوة النوم ، أو في ضجوة اليقظة ...
قلها في ضراعة المستغيث من كربته ، وفي قوة المطالب بحقه ..
قلها وأودعها كل ماتمهاؤ إليه من مطامح ورغاب ، فإنها لا تضيق
بشيء مما تنفسح له خلجات النفوس وأهواء القلوب ..
قلها وأنت ظلم جشع ، أو مظلوم موقور ...
قلها وأنت متصر جبار ، أو مستضعف مهزوم ...
قلها وأنت مسرور يهز أعطافك المرح ، أو محزون ينوء كاهلك
بالأثقال والخطوب ...

قلها أبدا ، مهما يكن من أمرك ، وعلى أى حال تكون ..
فإنك بعد أن يلهج بها لسانك ، لا تلبث أن تحس بأنك ذلك
المخلوق الذى عرف الخالق ، عرف الله ، فأنكشفت له الحقيقة
الآزلية من وجوده ، وزالت الغشاوة عن عينيه ، غشاوة

الاختلاف بين إنسان وإنسان ، وإن تباينت الألو ان ! ...

* * *

يارب ! ...

نداء يا له من نداء ! ...

فيه يتركز كل ما يهتف به الدعاء من صلوات وابتهاالات ،
هنا ارتفع على ظهر الأرض دماء ، إلى أن يطوى الله الأرض
والسما ! ...

فيه تندمج الأديان ؛ فإذا هي دين الله ، وتأتلف الأوطان ؛
فإذا هي وطن الإنسان .

فيه ينبض قلب الكون كله نبضة واحدة ملؤها طهر
وصفاء .

نداء ينتظم الناس أجمعين في سمط واحد ، هو سمط الإنسانية
الحال .

نداء يسمو بك على كل ما يخدعك في هذه الحياة ، من جاه
وزائف ، ومال زائل ، وسلطان يبيد .

نداء يصلك بتلك الروحانية السرمدية ، روحانية الله في
ملكوته الأعلى ! ...

* * *

يارب ! ...

كلمة ينبعث بها صوتك ، فإذا هو صدى لصوت البشرية في كل جيل وقبيل ، البشرية المبتله دائماً إلى الله ؛ لأنها أبدأ في حاجة إليه يؤنسها في الوحشة ، ويهديها من الحيرة ، ويعينها على الطريق ! ...

متى قلتها في إيمان و يقين ، عرفت كيف يستجيب الله للدعاء ، ويلبي النداء .

متى قلتها في حرارة تذيب نفسك ، وتصهر سريرتك ، شعرت بأنك قد اغتسلت وتطهرت ، فتألق نور عينيك ، وشاع الصفاء بين جنبيك ، وكأنك قد نبت لك جناحان يرفان ؛ فأنت بهما في خفة الطير تحلق في الفضاء الفسيح .

* * *

يارب ! ...

ما هتفت بك مرة إلا أحسست النورانية تشرق على قلبي ! ...
ما هتفت بك مرة إلا استشعرت الطمأنينة الساجية تشيع في نفسي ! ...

ما هتفت بك مرة إلا آنست فورة الأمل وانبعث الحيوية «
لاحوية الفتك والتدمير ، بل حيوية الحب الشامل العطوف ! ...

يارب ! ...

لا أرهب شيئاً في الوجود ، ما دام ندائى لك ملء سمعى ! ...
حتى أنت لا أرهبك ، لأن حبي إياك يعمر قلبى ، والمحبة
الصادق لا يتطرق إلى قلبه الخوف من يحب ! ...
ما أخافك إلا إن أحسست البعد عنك . وكيف أبعد عنك
وأنا بندائى لك قريب منك ؟ ...

ربما كنت أنا خاطئاً فيما كتب على من شر ، ولكنى أحب
فيك الخير يا صانع كل خير ، أحب فيك الطمأنينة والسلام يا منبع
كل طمأنينة وسلام ! ...

* * *

يارب ! ...

ما أسعدنى بحبي إياك ...

أنا لا أخشى أعاصير الحياة ؛ لأنى فى عصمة منها بالطلاسم .
ولست هذه الطلاسم إلا ما أجد لك فى قلبى من حب دائم موصول .
أنا لا أضيق بالآلام ذرعاً ، لأنى أجد فى نسمة رضاك ما يمحو
الآلام ويأسو الجراح .

يارب ! ...

لم أعد أعرف إلا وجودك معى .

حتى الموت لا أرهبه ، ولا أتهيبه ، فهو يدنيني منك ، ويجلو لي وجهك الوضاح .

أنا — إذا نمت — مطمئنا رخي البال ، فاسمك آخر ما تلفظ شفطاي .

وأصحو — إذا صحت — متفائلا طلق الأساير ، فندائي لك أول ما يلهج به لساني .

* * *

يارب ا ...

ما أحوجنا إلى أن نراك رأى البصيرة ، فالبصائر أقوى على الاتصال بكل ما هو مكنون ، بكل ما هو حق ، بكل ما هو خير . نريد أن نستجلي ببصيرتنا ضوءك ، لكي نغترف من حنانك وشفقتك ، لكي نروى قلوبنا بمحبتك .

إننا نتشوف إلى رؤيتك ، فلا تحجب عنا قبساً من نورانيتك ...

إننا نحس الوحشة في عالمنا على ضجته ، فهي ضجة الطبل الأجوف ، تثير فينا فرعاً ورهبة ا ...

لماذا لم نستشعر وجودك ، يفيض علينا أنساً ودعة ، فنحن في وحدة وانفراد ، وإن كنا في جمع حاشد ، وشمل جميع .

فلا نكلنا إلى هذه الوحدة الموحشة ، وحدة النفس المشردة ،
لا سكينه ولا سلوى .

* * *

يا رب ! ...
نحن في اضطراب يتلوه اضطراب ، تمسملنا أَلغاز الحياة إلى
أَلغاز ! ...

نحن في ظلمة حالكة ، حيارى لاندري أين المساق ؟ ...
فاكشف عنا الحجب ، واهتك أستار الظلام ، وأشرق علينا
بنورك ، نور الحق والخير والحب والسلام ! ...

* * *

يا رب ! ...
إنك لتسمع دعائي ، وإنك لتجيب ندائي ...
كلماتك تتأدى إلى ، بلا واسطة من أصوات ، فإن الأصوات
تطرق الآذان ، ولكن كلماتك تنفذ ثوا إلى القلوب .
أسمعي صوتك يا رب ! ...
أزبصيرتي لرؤيتك يا رب ! ...
اسقني من فيض رحمتك يا أرحم الراحمين ! ...

النَّبِيُّ الْإِنْسَانُ

نشأت فألقيت نفسى مسلما فى بيئة مسلمة ، أتلقى مراسم الدين .
تلقينا ودراسة ، وأمارس شعائره تقليدا ومحاكاة ... وعلى تعاقب
الملايسات تفقحت فى كثير من الأصول الدينية ماوسعنى أن أتفقه ،
وأصبحت بهذا أخا فى الإسلام لأهل الإسلام !...

والدين كالوطنية كلاهما يؤسم به الطفل يوم يولد ، ويفرض
عليه فيما يستقبل من أيامه ، لآخيرة له فى ذلك ولا طوع ، فأكثر
الناس ينقادون لدين البيئة أو يهتفون بحق الوطن ، مسايرة للركب
العام ، وانطلاقا مع التيار الدافق ... وربما أبى بعض الناس
إلا أن يعملوا عقولهم ويقلبوا أبصارهم ، سبرا الأغوار ، واستكناها
للحقائق ، وموازنة بين الدلائل ، حتى يخرجوا بإيمان صادق .
تستمد حيويته من درس وتبصر ، ومن يقن واقتناع .

لقد مر بى حين من الدهر . قضيته فى محنة واختبار ، أسائل
النفس فى شأن هذا الدين الذى تلقائى فتلقيته يوم ولدت ، إذ-

فرضته على البيئة فيما فرضت من أحكام العيش ... وكنت فيما أسألك به نفسى ، أطلق لعقلي حرية المحاورة والنقاش ، يتعلق بما شاء أن يتعلق به من آراء وأفكار ، ويتصفح من وجوه النظر ما يتاح له أن يتصفح ، لعله ينأى بى عن موقف الشك والحيرة والتردد ! ... ولم أترك العقل وحده يقضى قضاءه ، وإنما استكملت وسائل الحداية من طريق التأمل ، واستجلاء البصيرة والوجدان . وما هذا التأمل والاستبصار إلا أن تدع روحك مخلقة فى غير المنظور ، محاولة أن تستشف سر أثر الوجود ... وإن فى ذلك كله لتهذيباً للعقل ، وصقلاً للبرقة ، ووقوفاً بالعلم عند حد ، لا بغي فيه ولا طغيان . ونقضت يدى من تلك الفترة القاسية ، فترة الصراع والاختبار . وتمحيص ، وكأنى محموم ، أو كأنى قريب عهد بالخروج من مغتسل . يفور بالماء السخين ، أحس بأن روحى قد ذابت أدراجها فى حميم الماء ، وأنى قد أصبت الطاهر العميم ...

هنا تلمست عقيدتى : أتعرف كيف صارت ؟ ... فإذا أنا

— كما أنا — مسلم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، ... !

ولكن إيمانى ساعتهز بالإسلام . ويقينى به ، كان قد اتخذ فى

قرارة قلبى صورة جديدة لم تكن على هذا الوضوح من قبل . . .

فقد تمثل لى الدين جوهرأ وروحاً أكثر منه رسوماً وقواعد ،

و معنى جليلاً أكثر منه لفظاً محدوداً ... لقد أصبح عندي فكرة عميقة ، تسرى في شرايين الحياة مسرى الدم في شرايين الإنسان ، حتى لقد استبان لي هذا الدين فوق الأوامر والنواهي ، وفوق الرسوم والتعاليم ...

كان مفتاح فهمي لرسالة الإسلام أنى تصفحت حياة الرسول جانباً بعد جانب ، فتجلت لي شخصية عامرة بالعظائم في بناء كيان الأمة ، وفي تقويم خالق الفرد ، وفي نهج الحياة لسالكها من سائر الناس ...

أخذت بيدي هذه الشخصية الفذة ، تهديني طريق الحق والدين ، فوجدتني أحب هذا الدين ، وأحب فيه رسالته التي جاء بها رحمة وهدى .

سبحانك اللهم وتعاليت ، فيما قدرت وفيما اخترت ...
اصطفيت رسولك ومحمداً لأداء رسالتك ، فما كان اصطفاؤك إياه لهذا الأمر العظيم إلا لأنه كفه له عظيم ...

لعمرك الحق إن محمداً ، كان بشخصيته وبخصائصه قوة للدين ، وموداداً للإيمان ، ومناراً يرفع الغشاوات ويكشف الحجب ...
أينبعث النور وضاحاً من مصباح أقيم أغبر ؟ ...
لقد حمل محمد ، شعلة الإسلام ، فأضاءت في يده ، وازدادت

من قوهج ، وأشاعت من حوله الدفء والضياء ...! .
كانت حياة الرسول قبل مبعثه حياة تكمن فيها خصائص النبوة ،
وتتمثل أخلاق الرسالة ، فلم يكن - بعد أن بُعث رسولا إلى الناس -
شخصا جديدا على الناس في الأخلاق والسلوك والأهداف ...
ولو جاز لنا أن نستشف معالم الإسلام قبل الدعوة المحمدية
إليه لترامت لنا هذه المعالم من خلال حياة «محمد» قبل الإسلام ...!
إن الله إذا أراد أمرا هيا له أسبابه . سنة الله في خلقه ، ولن
تجد لسنة الله تحويلا ... فلا غرو أن يكون «محمد» هو الأفق
الرفيع الذي صاغته يد العناية الإلهية لكي يشرق من جانبه كوكب
الدين باهر اللائع ...!

شخصية «محمد» ترجمة حية لكتاب الله ، إذا قرأت قرآنه
طلعتك الصفائف الغر من حياة رسوله ومن ميزاته ، وكأنما
شاء الله أن يسوق لنا منهج الدين في كتابه ، وأن يتبعه تطبيقا
عمليا ونموذجا بشريا في حياة «محمد» ، وفيما أُثِرَ عنه من ألوان
التصرفات في شتى شؤون الحياة ...!

كان «محمد» رجل دنيا ودين ...!

أحب الطيبات من متاع العيش ، وسعى إليها سعى الأخيار
بوسائل الأخيار ، لأنه كان يرى الله في كل ما يعمل ، مقبلا ضميره .

مقام الرقيب الساهر ، وذلك هو جوهر الدين الخالص ... ذلك هو الإسلام ! ...

يهيب بك الإسلام أن تستمتع بدنياك طولا وعرضا ما طاب لك ، ويدفع بك إلى الضرب في مناكب الأرض استخلاصا لما على ظهرها ، وما في باطنها ، من كل شيء ... فلتفعل ما تهفو إليه نفسك من مأكل ومشرب وملبس ، ولتلمس كل ملذة من وجهها المشروع ، لا حرج عليك ولا تثريب ، مادام ذلك منك في غير عدوان ولا تسرف .

كان «محمد» إنسانيا قبل أن يكون نبيا ، فلما أظلمت نبوته لم ترحه إنسانيته ، بل لقد زكت وتوهجت ، وبقي إنسانا في جوانب حياته ، تتصل أرومته بأرض البشر ، وتسمو روحه إلى الملا الأعلى ... خالط «محمد» عشيرته ، ودامج بيئته ، فكان منها كما كان لها ، لم تنكر منه نفرة ، ولم تأخذ عليه جفوة ، وإن كانت قد عرفت فيه زعيم انقلاب يكافح الغنى ، ويعلى كلمة الحق ! ...

أحب «محمد» وأبغض ، وأثاب وعاقب ، وعمل الناس كما يحب أن يعاملوا ، لا رحمة في غير مرحم ، ولا قسوة إلا حين تقتضيها حكمة ! ... وهكذا عاش «محمد» في دنياه فردا منها ، لا شذوذ ولا انفصام ! ...

كذلك كان دين محمد، إنسانياً مثله ، من فهم أسرارهِ من الناس
لم يَرَبْهُ منه شيء ، فإنه واجد فيه وشائج النفس البشرية في
أطوارها ومنازعها ، وواجد فيه مع ذلك سموا بهذه النفس البشرية
إلى الأوج الرفيع ...!

لكل فرد من الناس على تفاوت درجاتهم من الفريضة والعقل
والمعرفة مكان في ذلك الدين القيم يسمعه ، ويوفر له فيه طمأنينة
العيش ، وراحة النفس ، وسكينة الضمير ... وكيف لا يكون
الامر كذلك ، وهذا دين الله الشامل لعباد الله ، ومن أعرف بالناس
بواختلافهم في الغرائز والعقول والمعارف من رب الناس ؟ ...
ومن أخبر بالطبائع والنفوس من رب القلوب ؟ ...

ليصدق كل امرئ نفسه ، وليقف موقف الاختبار والتمحيص
في صراحة وإخلاص ، وليضع نصب عينيه التوفيق بين ماله الإنسان
من طبع بشري متأصل ، وماله فوق ذلك من طموح روحى إلى
المثل العليا من فضيلة وعدالة وخير ...

إنه لو فیل ذلك ، لأيقن — مهما تكن عقيدته في نشأته
وبيئته — بأن هناك وشائج موصولة بينه وبين نفسية « محمد » ،
النبي الإنسان ، وبينه وبين إسلام « محمد » دين الله ...!

القرآن مِلْجَمَةُ الْفَنِّ الرَّفِيعِ.

كان «عمر بن الخطاب» من ألد الناس عداوة «لمحمد»، ومن أكبرهم مناهضة لدين الله، ومن أشدهم حرباً على من أسلموا، فما هُدى إلى الإسلام حتى صارت عداوته حباً، ومناهضته نصرة وحربه تأييداً وتعزيراً. وحتى شهد له الرسول بأنه: «أشد المسلمين في الله!..».

ألم يكن عجباً أن إسلام «عمر»، كان عفو الساعة، على حين بغيته، لم تسبقه محاولة ومزاولة، فما هي إلا لحظات حتى انقلب ذلك الخصم الجاهل الجبار العنيد، فإذا هو نصير من المؤمنين جبار عنيد؟...

كيف أسلم «عمر»، ولم يكن بينه وبين الكيد لنبى الإسلام إلا بعض ساعة؟...

يقول في ذلك «عمر»: :

«... كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب نحر، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش، فخرجت أريد جاسئاً أولئك، فلم أجد منهم أحداً، فقلت: لو أنى جئت فلانا الخمار،

وخرجت بجثته فلم أجده، فحُثَّ المسجد أريد أن أطوف بالكعبة
فإذا رسول الله قائم يصلي ، فقلت : والله لو أني استمعت « لمحمد »
الليلة ، حتى أسمع ما يقول ، فلما سمعت القرآن رق له قلبي ، فبكيت
ودخلني الإسلام ... »

على هذا النحو كان « عمر » جاهليا ينطوى على عنجية
وصلف ، فما إن استمع لآيات من القرآن ، حتى نفص عنه جاهليته
في خفقة البرق ولمحة البصر ! ...

ترسل على سمعه ذلك النغم العذب الصافي ، فاضطرب كيانه ،
وانتظمته رعشة ليس له بمثلها عهد ! ...

أحس شيئاً ينفجر في قلبه ، لم يعرف له كنها .
أنبسح هو قد انبثق بغتة ، فأفاض مائه السلسال على حنايا
نفسه ! ... أكوكب هو قد توهج دفعة ، فأشع ضوءه الباهر في
جنابات روحه ؟ ...

لقد كان انقلاباً عظيماً ... ولكنه تم على أيسر سبيل ، فما هو
إلا سماعه آيات ترتل من كتاب الله ، كانت عنده أقوى من برهان
عقلي يجابه به ، ودليل منطقي يساق إليه .

لقد مسح « عمر » بما في « القرآن » من نعمة حلوة تسربت
في مشاعره ، فزهتها وبعثت فيها يقظة الحياة ، نعمة تحوى حكمة

الأزل ، تلقتها روحه كما يتلقى الصديان رشفة ماء ، فسرعان
ما امتزجت بها الروح .

« القرآن » حقاً أكبر معجزة ...

إنه ذروة الفن الرفيع ، صاغه الله من نور ، وأرسله شعاعاً
تفاذاً ، لا يمتنع عليه شغاف القلوب ! ...

إنه ترنيم سماوى حنون ، تطرب به النفس وتجد منه نشوة
صوفية تتفتح بها مغاليق المجهول من سر الحياة ، ويتجلى بها جوهر
الحق والخير والجمال ! ...

« القرآن » معجزة الفن فى أوسع معانيه ، فهو نعمة تترسل
فى أشعة متألقة ، أو نور يتألق فى نعمة مترسلة ! ...

إنه أروع لحن أنشده الزمن ، فأصغى له الوجود ، وهو به
نشوان طروب .

أنت تصغى إلى « القرآن » فتطرب وتحسب أنك لست ببالغ منه
شيئاً وراء هذا الطرب ، ولكنك فى نشوتك به تشعر بأن نفسك
قد تدبست إلى طوايا الوجود وكشفت عنه الحجب واستشفت
أسراره لا تمويه فيها ولا تشويه .

« القرآن » يلس وجدانك ، ويثير عاطفتك ، ويوقظ بصيرتك
فيربك ما انطوت عليه إنسانيتك من حقائق خالدة .

إنك لتفهم « القرآن » كأننا ما كنت ؛ لأن حقائقه ليست غريبة
عنك ، فهي كأمته في كيانك ، سارية في إنسانك ... !

لا غرابة فيما يبسط لك « القرآن » من شرعة وحكمة ، فما هي
إلا شرعة البشرية الأصلية ما بقيت البشرية ، وما هي إلا حكمة
الأزل إلى آخر الأبد ... !

لم يكن دين « محمد » صبغة مستعارة لهذا الكون ، ولم يكن
إلهاباً مفروضاً على أولئك البشر ، وإنما هو صفوة مستخلصة من
جوهر الكون الأصل ، وفطرة الإنسان السوية ؛ فهو بحق ؛
« دين الفطرة » ... !

فصارى ما جاء به الدين الإسلامى أنه هداى إلى ما انطوت
عليه النفس الأدمية من مثل رفعة فى الحق والخير والجمال ، فبلغ
رسالة « القرآن » أنه يثير بنغمته الحلوة أشواق نفسك إلى كل
ما هو حق وخير وجمال !

صدق ذلك العربى الذى شهد « للقرآن » بأن له حلاوة ،
وأن عليه طلاوة ، وأقسم : ما هذا بقول بشر ... !

أجل ... فليس « القرآن » إلا نعمة علوية من السماء .
إنه أبدع ملحمة غنائية عرفها الإنسان ، صيغت فى بلاغة
مشرفة ، وأوحى بها إلى النبى لىسترعى إليها سميع الإنسانية الخبرى ،

حتى نجد فيها سكينه النفس وطمانينه الوجدان ..
مبدع « القرآن » هو الفنان الأكبر : مبدع الكون وبأرضه
الإنسان ! ...

من فيض الفن الإلهي الزاخر يستلهم المثال والمصور والموسيقى
والشاعر والكاتب ، وبنوره القدسي يستضيئون أجمعين ...
وما « القرآن » إلا قبسة الشاعرية الإلهية ، أوحى بها قصيداً
عريباً فريداً ، يروع القلوب ، ويهز المشاعر ! ...
« القرآن » شعر ، وإن أعجز الشعر ، ولم يكسسه ...
من ابتغى أن يتذوق حلاوة « القرآن » ، ويستشعر معانيه
الغنية ، ويستجيب لصوفيته السمحة ، فليسمعه كما أنزل ؛ « فالقرآن »
عربي ، ومعجزته في بيانه العربي ، في تلك البلاغة الساحرة ، في
تلك الصياغة الفنية الأخاذة ، في ذلك الإيقاع المطرب المعجب
في ذلك التناسق والتوافق والانسجام ! ...
« القرآن » لا يترجم ، ولا يلخص ، ولا يقدم إلا كما هو في
ثوبه الأصيل ! ...

هل استطاع مترجم أن ينقل الشعر من لغة إلى لغة ، محتفظاً
له بما انطوى عليه من روح وجوهر ؟ ...
روعة الشعر في تعيينه وتصويره ، وبلاغته في جرسه

وإيقاعه ، فألفاظه تؤدي معانيه في ألفة من النغم ، فإذا أفت أفقده
عنصرأ من عناصره بطل السحر وغاض البهاء ! ...

مثل من يحاول استشفاف بلاغة « القرآن » في لغة غير لغته ،
كمثل من يطلب النور في غير مصباحه ، أو من يوقع « سيمفونية »
متجاوبة الأنغام على أوتار « ربابه » في يد منشد جوال ! ...

إنى لأجهر بأن ترجمة « القرآن » وإن أحيطت بأسباب التمكن
والقدرة ، وابتُنِغيت لها أسباب الدقة والإتقان ، لا تكون
إلا تشويهاً لا كبر أثر في هذا الوجود ... إنها اجتراء على
عمل الله ! ...

فلنستبق « القرآن » في عروبه التي صيغها الله بها ، ومن
« أحسن من الله صبغة ؟ ...

على أنى أتساءل :

هل عرفنا « القرآن » حقه ، ونهضنا بالواجب إزاءه ؟ ...

هل استحدثنا ما نستطيع من وسائل لتقريب مناله من جمهرة
الناس ، وتيسير سبلهم إليه ؟ ...

هل اتخذنا الأسباب التي تجعل سلطان « القرآن » على الأذهان
أعمق ، وأثره في النفوس أجدى ؟ ...

لا يذهبن بك الهم إلى أن طبع الألوف من نسخه كل عام ،

وإذاعة ترتيله بالطرب المتعارف بين القراء ، فهما كفاية
وغناء ... ١

لا تظنن أن ذلك هو قصارى ما يمكن أن يبذل للجمهور ،
لكي ينتفع بالقرآن على وجه الصحيح في عصرنا الحديث .
ما قصر أسلافنا في تفسير القرآن ، لطلابه ومريديه ، فقد
جهدوا ما جهدوا ، وجددوا ما جددوا ، فإذا فعلنا نحن المستخلفين
على هذا التراث العظيم ؟ ... ٢

لقد أخذنا إلى التزم والتحفظ والجلود ، فلم نكن على سنن
أسلافنا في الاجتهاد والتجديد ، وقفنا حيث انتهوا ، وظللتنا
قاعدين والدنيا تسير بل تطير ، وأهل الأرض يتطورون عقلا
وفهما وذوقا ، ونحن نتابع الركب السائر بل الطائر بعيد يرنق فيها
نعاس الخمول ، وشفاهنا تهمهم : « ليس في الإمكان أبدع
 مما كان » ... ٣

كانت الآيات تنزل من فم النبي صلوات الله عليه ، فيتلقها
الصحابة ليودعوها صدورهم حافظين ، ثم أثبتوها في مختلف
الألواح والصحف من سعف ونخار وجلود ، ولم تكن الكتابة
العربية قد عرفت بعد فقط الحروف وضبط الحركات ، فتواردت
عهود من التشظيم والتدوير تبدع الإعجاز والشكل ، وعلامات

الوقف والوصل ، ومواقع القطع والمد ، وما إلى ذلك من الرقوم التي تيسر كتاب الله للأفهام . ثم تواصل التجديد والتجويد لتلاوة « القرآن » في تنغيم محب ، وتطريب شائق ، حتى يبلغ من النفوس المبلغ المنشود ! ...

فكيف لا تتابع الخطو ، ونصطنع من الوسائل ما يلائم روح العصر ؟ ...

إن هذا « القرآن » وديعة في أيدينا ، وهو قبسة نور وهدى ، فما بالنا نستبقه اليوم كما هو في قنديله القديم ، ونحن في زمن يحفل بلوامع الحضارة ألفة الأضواء تبهر الأنظار ؟ ...
وما لنا لا نتخذ من الوسائل الفنية ما تتجلى به روعة ذلك الفن الإلهي الذي يتمثل في « القرآن » ؟ ...

لماذا لا نرف « القرآن » في مظهرين من التصوير والموسيقى ؟ ...
أقول هذا ، وكأنني أرى هامات تتطاول ، وأعناقاً تترتب ، وعيوناً تحملى ، وشفاها تنبس بألفاظ الدهشة والعجب ... ولكني أمضى في تبيان قولي ، جاهر آبه ، يحدوني عليه إعلاء كلمة الله في إيمان ويقين ! ...

علينا أن نصطنع من التصوير والموسيقى ما يكفل لهذا الأثر الفني تعمقا في النفوس ، وتغلغلا في مكان الشعور ! ...

لقد زحرت مدنيتنا الراهنة بأحداث وشواغل ومزاحمات
أورثت الناس مزيداً من الإجهاد والإرهاق ، وبذلك ضعفت
الحواس في طبيعتها المرفهة . ووهنت المشاعر في فطرتها السليمة ،
وضار الناس أقل تمثلاً لما في الكون من مخايل الجمال الروحي ،
وأحوج إلى دواعي اليقظة والتوجيه والإغراء . فلنكي تستعيد
الحواس رهاقتها وتسترجع المشاعر صفاءها ، يجب أن نستعين
بوسائل جديدة توفى بنا على الغاية المرجوة .

لا شيء أبلغ في النفوس من الموسيقى والتصوير ، بهما ننبه
ما خمل من الحواس ، ونشجذ ما تسلم من المشاعر ، ونثير ما ترسب
في قرارات النفوس من تذوق للفن الرفيع ...

الخير كل الخير في أن نجند طائفة من عباقرة التصوير ،
ليجولوا لنا مشاهد من « القرآن » ، فإذا هي ألواح فنية رائعة تعين
على التفهم ، وتبعث على التأثر ، لا يلبث الناظر إليها أن يستبين
الحقائق ، ويستجيب لما تهدف إليه من حكمة وبصرة .

ما أحب إلى المؤمن المقبل على التزود من دينه أن يستمتع
بهذه المشاهد القرآنية في صور أخاذة ساحرة ، وما أعظم الأثر الذي
تتركه هذه الصور في نفوس الناس جميعاً ، ولا سيما النشء . فستكون
لهم تلك المشاهد قرة أعين ، تبعثهم على التعرف والاستطلاع ،

ولا يذهب من نفوسهم وقعها في شتى مراحل العمر .
لست أعني أن يقتصر الأمر على أن تكون هذه الصور في
ثنائيا كتاب الله ، ولكنني أنشد أن تكون من الصور ألواح كبيرة
تعلق في المساجد ، وأماكن التعبد بخاصة ، وتردان بها المعاهد
والمؤسسات والدور على وجه عام .

وما إخالنا اليوم نشير في وجه التصوير ما كان يثار في الماضي
من اعتراض ونكير ، فقد انطوى عهد الوثنية إلى غير مرد ،
ولم نعد نخشى على المؤمنين اليوم ما كان الأقدمون يخشونه عليهم
من فتنة ، وهم قريبو عهد بالجاهلية وعبادة الأوثان ...
ولربما كانت الموسيقى أعمق من التصوير أثراً في هذا الشأن ،
فالنغمة العذبة الصادقة في تعبيرها تتسلل إلى سويداء القلب ،
فتنبعث فيه بواطن العواطف ، وتهز منه دقات الخيلجات ...

أرأيت كيف تتلقى الأسماع آيات « القرآن » حين يرتلها صوت
حلو النبرة جميل النغم ؟ ... فإذا يحجم بنا عن السمو بهذا التطريب
البدائي إلى لحن من ألحان الرفيع على أوضاع موسيقية أصيلة ، حتى
نجلو ما في « القرآن » من إبداع وروعة إيقاع ...

فلنجد إذن طائفة من عباقرة الملحنين ليجددوا فن التلاوة
بوالترتيل ، فنستمع إلى « القرآن » على لسان قارئ ، فنان ، يتخذ

لقراءته لحنا رفيعا يعبر به عن المعاني القرآنية السامية ، ويبرز ما فيها من خصائص الجمال ...!

« القرآن » زاخر بألوان من صور ومشاعر ، وإن صياغته لتبلغ في خلاقتها مبلغ السحر ، فهل أقدر من اللحن الموسيقي على أن يمازج هذه الصور ويدمج تلك المشاعر ؟... وهل أطوع منه في الاستجابة لها وإخراجها موفورة الحظ من نصوص وسطوع ، ميسورة السبيل إلى هدفها المرموق ؟...

لماذا لا نستعين بالآلات الموسيقية المستحدثة ، في مصاحبة القرآني ، ومراسلته على نحو في ؟...
أليس في ذلك تلطيف وترقيق لما نفهمه ، في معنى التعبد ، من خشنة ومكابدة ؟...

لم لا تكون العبادة فنا جميلا ، يشغف القلوب حبا ؟...
ولم لا تكون الموسيقي — في ظلال التعبد — صوفية سامية ؟
وهي في حقيقة أمرها رياضة روحية ، تمت إلى خصائص الدين بأوثق الأسباب ؟...

ليس كل التعبد أن يمارس المرء تلك الرسوم المألوفة من ترديد القول ، وتحريك الأعضاء والجوارح ، فجوهر التعبد الحق أن ينسى المرء نفسه في ملكوت الله الأعظم ، فيسبح في أفق من

الرحمة والحنان والحب ، ويشعر بأنه قطرة موصولة بذلك الموج
الشامل في سماء الله وأرضه ، لا كيان له إلا به ، ولا انفصام له عنه ،
به يحيا ، وفيه يفي 1 ...

والموسيقى خير معوان على أن يسمو المتعبد بنفسه إلى ذلك
الأفق الروحاني الأعلى 1 ...

لقد كانت الموسيقى في ركب العبادة منذ القرون الأولى ، فهي
من دعائم المراسم الدينية على تعاقب العصور واختلاف الأديان .
وهل نسي « مزامير داود » ٢ ... وهل قامت حلقات الأذكار
وحفلات الموالد إلا على الأناشيد 1 ... وهل « الأذان » ،
إلا لحن موسيقي ، يعلو به صوت المؤذن في أطباق الجو ، فيليه
المصلون مشغوفين ٢ ...

أكبر يقيني أننا لو عطينا بأن يكون للقرآن هذا الإطار
الموسيقي لكان له في النفوس ، وقع عظيم ، ولأقبل الناس عليه
يتناشدونه في إقبال وإشراق ، ولأنني الطفل نفسه ينمو ، والقرآن
في روحه ينمو ، فيصبح الدين جزءا منه ، يستجيب له ، إذ يتلقاه
شعورا ملازما يحيا معه ، فيؤثر فيه أيما تأثير ، وما أسعد امرءا
يشب ونور الإيمان يعمر قلبه ، هاديا إلى الحياة المثلى ، عاصما من
الشرور والآثام 1 ...

هذا « القرآن » العظيم ملحمة المسلم الكبرى في عالم الفن
الرفيع ، يضم بين دفتيه حكمة الزمن ، وفلسفة الوجود ، فيظهرنا
على سرائر النفوس ، ويرينا نوازع الخير والشر ، ويدعونا للتي
هي أحسن وأقوم ، فلزام علينا أن نطبع عليه ناشئتنا في منهج
عصرى ، منهج يوائم ما نعرف اليوم من طرائق التربية والتلقين
والإفهام ، حتى ينشأ جيلنا الجديد وقد تذوق ما في « القرآن » من
كرائم المعاني ، واستشعر ما فيه من حكمة وهدى ، فإذا هو
« قرآنى ، الطبع ، « قرآنى ، الروح ...

وما ظنك بامرىء يصاحب « القرآن » منذ نشأته : يسمعه لحننا
عذباً يسحر السمع ، وينظره لوحاً فنياً يبهز النظر ، ويتذوقه معنى
وقيقاً وحكمة بالغة ... ألا يكون خليقاً بأن تظهر روحه وتصفو
نفسه ، وتستنير بصيرته ، ويعمق إيمانه ، فيدرك حقائق الحياة
على نحو كريم ؟ ...

« القرآن » كنز المؤمن ... فلتؤد له حقه من التقديس الخالص ،
التقديس الحق ، التقديس القائم على دعائم من الفهم والحب
والانتفاع ...

العامّة

قضيّة الرؤوس العارضة!...

بارحت الدار قبيل الظهيرة ، من يوم اشتد قيظه ، وتلهب
هواؤه ، وكنت أتخذ الطربوش غطاء لرأسي ؛ فإني مازلت أحفظ
به أثرا لشعار وطني ، أوشك أن يبيد .

فما كدت أوغل في الطريق ، حتى طفق العرق يتصبب على
وجهي ، سابحا على عيني ، يكاد يغشى بصري ، وإذا برأسي أتون
يتوهج ، فألفيتني أخلع الطربوش ، وأنجيح عني ، وأناجي نفسي :
فلأكن عصريا ، ولأشابع الرأي العام في تخليه عن هذا النطاء
الذي استبان عجزه عن حماية الرؤوس !...

وانطلقت وقتا أطوف في المدينة بلا طربوش ، نشيط
النفس ، خفيف الحركة ، لا يشغل خطأي من شيء !...

بيد أنني بعد أن عدت أدراجي إلى البيت ، وجدتني صريع
صداع شديد ، فكأن مطرقة ضخمة قد انبعثت تدق رأسي دقا
في غير هوادة ولا راحة ، وأحسست بوجهي يتضرم ؛ وكان
النار تلتهمه التهاما !...

وغللت بعد لآى أنى قد أصابتنى ضربة شمس ، من جراء
نبذى للطربوش ، صديقى القديم ، فعدت إليه أمسح عليه ، مترضيا
إياه ، طالبا منه الصفح والفران ! ...

ومرة خرجت فى الصبيحة من يوم عاصف ، تلسع فيه برودة
الشتاء ، ولا ينق طع له رذاذ ، وناجيت النفس أقول : فى مثل هذا
اليوم يكون الطربوش لى خير معوان يحمينى من عصف الرياح
ويرد عنى وقع الأمطار .

وماكدت أخطو بضع خطوات حتى أننيت الهواء يقتلعه
ويقتذف به فى عرض الطريق ، ثم يمرغه فى الأوحال . فعدلت
نحوه أمد له يد المساعدة ، وأنتشلته من بركة ماء كان فيها على وشك
أن يغرق . وجعلت أمسح عنه ما علق به من ماء وطين ، وأعدته
إلى مكانه من رأى ، أتقى به غضب السماء ... بيد أنه ما لبث أن
طار عنى ، وحملته الريح إلى بركة يسبح على سطحها بمنة ويسرة ،
فبادرت إلى إسعافه وأرجعته إلى قواعده سالما !

ويبدولى أنه قد طاب له الطيش والنزق ، فسرعان ما عاود
السباحة فى برك الطين ، فلم أملك إلا أن أرمقه شزرا ، ثم ما لبثت
أن ازوررت عنه ، ومضيت أواصل السير ، وقد بنيت عزى على
أن أنبذه ، وجعلت أناجى النفس : فلا كن عصريا ولاشايع الرأى العام

في التخلي عن هذا الغطاء الذي استبان عجزه عن حماية الرموس ...
وتابعت خطاى أستقبل على رأسى رداد المطر في طرب ،
وأرحب بالهواء البارد يعايب شعري ، فيبحث الانتعاش
في أوصالى ،

ولما بلغت الدار أنيتنى صريع زكام وسعال ، ما أسرع أن
أفنى إلى نزلة شعبية ، كادت توردنى موارد التلف ! ...
وفيا أنا راقدة في فراشى ، أعانى وعكنى ، إذ انسرح قلب
الراى في تلك القضية العَصِيَّة ، قضية غطاء الرأس ، أو بالحرى
« قضية الرموس العارية » ...

وراعنى أمر لم أفطن إليه إلا في تلك الساعة ، أمر أذهلنى
وحينئذى ، وهو أننا أمة بلا غطاء رأس ! ...
هذه أول مرة في تاريخ البشرية ، منذ انفصل الإنسان عن
حياة الغاب وبدأ يؤسس حضارة ، نجد أمة تبدو بلا غطاء رأس ،
هى أمتنا العزيزة ! ...

في كل عهد من عهود التاريخ ، وفي كل رقعة من رقاع الأرض
نرى للناس غطاء رأس ، حتى « الهنود الحمر » لهم عصائبهم المحلاة
بزيش الطير تزين الجباه . فلم نصر هذا الإصرار العجيب على
الخروج برؤوسنا حاسرة ؟ ... ولم نعرض الضعاف منا ، وغير

الضعاف ، لهزبات الشمس والزلات الشعبية ؟ ... وما ذنب هؤلاء الصالح المساكين ، يستقبلون — على رؤوسهم اللامعة الملساء — سياط الصقيع في الشتاء ، وألسنة اللهب في الصيف ؟ ...

ألا رحمه بنا ورفقا أيها الشباب المجدد ! ... ألم يكن جديرا بكم ، قبل أن تعلنوا الحرب على الطربوش ، أن تفكروا في غطاء آخر ، تهدونه إلى الأمة مكانه ؟ ... أما أن تتركونا عراة الرموس فذلك أمر لا تحتمله عافية الأبدان ، ولا تسيغته سلامة الأذواق .

ورحمت أمعن في التفكير ...

وحملني الخيال إلى آفاق بعيدة ... !

وتمثلت نفسي ، أجوس خلال معرض عظيم ، يضم في جنباته جميع النماذج من أغطية الرموس ، منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، وراعني ما حفل به المعرض من تنوع وطرافة . ولاني لأذكر فيما أذكر تلك العصائب من أوراق الشجر تكلل الهامات ، وهذه الفلانس الفرعونية الكاسية ، بألوانها المفوقة البهجة ، وهذا الحشد الزاخر : من طراوير ، وطرايش « وقلايق » ، وقبعات ، وعمائم ، مختلفة الشكول والأوضاع ، مثلت أمامها ساعات تلو ساعات ، أملاً منها عيني .

ووجدتني أطيل وقفتي أمام قسم العمائم ، فقد أحسست

شعورا عميقا ، يحتذي بنى نحوه ، شعور حنين دافق ، قد تفجر من
قاي على حين بغتة .

وما إن نُبت إلى يقظتي حتى هجس بي هاجس : لم لا أكون
في هذا الأمر رائد فكرة ، وصاحب توجيه ؟ ... لم لا أهدى
— إلى مواطني الكرام — حلا لتلك القضية العصية التي طال عليها
الأم ؟ ... لم لا أقول لهم جهير الصوت :

دونكم العمامة ، فلنتخذها دون سواها ١ ...

العمامة ياسادة هي أصلح غطاء للرأس ، لا في مصر وحدها بل
في أقطار العروبة كلها ...

علينا أن نوحّد غطاء الرؤوس ، فنتخذ على أثر ذلك
الرءوش ١ ...

في كتب الأولين والمحدثين فصول طوال في فلسفة الزي ،
ومبلغ أثره في النفوس ؛ فإذا استطعنا أن نجعل للشعوب العربية
كلها غطاء موحدا للرأس ، كفّلنا لها وحدة في التفكير ، ورأينا
كيف تتصاغر المشاحنات ، وكيف تضيق شقة الخلاف ، ومن ثمّ
نزول الفوارق ، ويشيع الوئام .

خذوها مني يا شعوب العرب كلمة مخلص يحضكم النصيح :

اتخذوا العمامة غطاء لرؤوسكم ١ ...

انبدوا ما عداها .

لا يكون بعد اليوم طرايش مصرية أو تونسية ، ولا برانس مغربية أو ليبية ، ولا كوفيات حجازية ، ولا فيصليات عراقية ، ولا قلابق هاشمية ، أو قلائس لبنانية ، أو ما إلى ذلك من أغطية للرهوس متباينة الطراز ، تثير الدهشة والعجب ، بل إنها لتثير الحنق والسخط في شعوب قد توثقت بينها وشائج من دم وعقيدة ، وشعور ولسان ! ...

لن يكون لنا إلا عمامة موحدة .

إنها راية العروبة وسفيرها الأوحد أمام قبعة الغرب ! ...
اتخذوا العمامة شعارا لكم وانظروا كيف تسير الأمور ! ...
ولعلمكم تسألوني :

أية عمامة أنت مختارها لنا ؟ ... إن دنيا العمامم فسيحة الأرجاء ،
تزخر بمختلف الأشكال والألوان ! ...

منها العمام التركية القديمة للسلاطين وغير السلطين ، تلك التي تماثل القباب الشاحخة على ضرائح الأولياء ! ...
ومنها العمامم الأزهرية المجنحة ، في عهودها السوافت ، تلك التي يتدلى منها « عذبات » على الظهر ؛ كصفائر الصينيين في مواضى الحقب ! ...

ومنها العمام المستطيلة كالطراير ، تنزع بأطرافها إلى السماء ؛
كأنها فاطحات السحب ! ...

ومنها العمام المنساجة المفرطحة ؛ كأنها رقائق النمطير ينسبط
بعضها فوق بعض ! ...

ومنها العمام « المقلوطة » ، المتضائلة في حجمها ، المتصاغرة
في هيئتها ؛ كأنها تحاول الاستخفاء والتستر عن أعين الرقباء ! ...
ومنها ... ومنها ...

العمام كثيرة متعددة ، يصوغها كل بلد على نحو خاص ، بل
إن كل امرئ يصوغها بحسب ذوقه وهواه ... فأياها تختار ؟ ...
أترأى تريدنا على أن نعود القمقرى ، فنأخذ غطاء رأس قد عفى
عليه الزمن ، وانسدل عليه ستر النسيان ؟ ...

على رسلكم أيها الرفاق ... أحسنوا إلى الظن ، واسمعوا مني
الجواب :

ليست رجعيًا وحق السماء . وما عمامتي التي أنشدتها إلا عمامة
عصرية من طراز مبتكر ، توحى للرأس الذي يلبسها بكل ما هو
جديد . فلفح من الأنظمة والمذاهب والآراء ! ...

والعل أول خاطر يلوح لي في هذا الشأن هو أن نخيل الأمر
على جهة الاختصاص ، ندرسه في روية ، وتصدر قرارها فيه على

يصيرة ، وليست جهة الاختصاص هذه إلا « الجامعة العربية » ...
 وإني لأطرق على استحياء باب تلك « الجامعة » الموقرة
 باقتراح متواضع ، هو أن تدعو إلى « مؤتمر البائدة المستديرة »
 تسميه « مؤتمر العمامة » . قوامه وفود من أهل الرأي والتجربة
 والحكمة ، تبعث بهم دولنا العربية ، يضحهم طائفة من خبراء
 الزى الفنين ! ...

على هذا المؤتمر أن يناقش موضوع : « غطاء الرأس » ، وأن
 يضع لنا نموذجاً لعمامة عصرية تصالح أن تكون غطاء رأس
 للمواطن العربي ، في جميع أرجاء امبراطوريتنا العربية العتيدة ! ...
 ولتسمح لي « الجامعة » بوصفي صاحب الاقتراح ببعض
 توصيات أقدمها إلى المؤتمر الموقر ، تتلخص فيما يلي :
 لزوم أن يتوافر في عمامتنا الجديدة عناصر أساسية ، هي الجمال
 والوجاهة ، والبساطة ، وخفة الدم ! ...

كذلك أقترح أن تتخذ مادتها من اللدائن (البلاستيك) لكي
 تصير روح التطور العصري ...

وأن تكون لينة طرية ، ففي ذلك تطرية للزئوس الصلبة
 المنحرفة عن جادة الصواب ، وتأيين الكراء الفجة الجامدة ...
 العسيرة الهضم ! ...

وَأَنْ تَحْتَفِظَ بِلَوْنِهَا النَّاصِعِ الْبَيَاضِ ! ...
وَأَنْ تَحْتَفِظَ كَذَلِكَ بِمُظْهِرِهَا الْعَتِيدِ ذِي اللَّيَالِ وَالظُّلُمَاتِ ...
وَأَنْ كِيرَ الْأَمَلِ فِي الْأَيْبَسَى أَهْلَ الْفَنِّ مِنْ مَبْتَكِرِي هَذَا
النَّظَاءِ الْجَدِيدِ لِلرَّأْسِ أَنْ تَتَوَافَرَ لَهُ عُنَاصِرُ « تَكْيِيفِ الْأَهْوَاءِ »
وَالْوَقَايَةِ مِنَ الْأَمْطَارِ ، لِيَكُونَ صَالِحًا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، مِمَّا
تَقْلِبْتَ الْأَهْوَاءَ ... وَتَلَاَعَبْتَ الْأَهْوَاءَ ! ...
هَاهُوَ ذَا مَشْرُوعٍ خَطِيرٍ أَعْرَضَهُ عَلَى « جَامِعَةِ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ »
مَشْغُوعًا بِنَصِيحَتِي التَّالِيَةِ :
أَتْرَكُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِنْ أَعْمَالٍ ! ...
قَفُوا مَا تَتَدَارَسُونَهُ مِنْ بَرَامِجٍ ! ...
تَنَحُّوا الْيَوْمَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ...
تَفَرَّغُوا لِأَمْرِ وَاحِدٍ ، لِمَشْرُوعٍ وَاحِدٍ ، هُوَ مَشْرُوعُ غُطَاءِ
الرَّأْسِ الْجَدِيدِ . فَإِذَا اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا قَرَارًا فِي هَذَا الشَّأْنِ
وَأَنْ تَنْفِذُوهُ فِي جَمِيعِ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ ، كَانَ ذَلِكَ انْتِصَارًا لَيْسَ بَعْدَهُ
« انْتِصَارٌ ، انْتِصَارٌ أَيْسَجِلُهُ لَكُمْ التَّارِخُ فِي زَهْوٍ وَنَخَارٍ .
وَلِإِنْ أَوَّلُ جُلُوسَةٍ تَعْقِدُونَهَا ، وَالْعَامَّةُ الْمُوَحَّدَةُ تَتَوَجَّعُ رُءُوسُكُمْ ،
مُسْتَكُونٌ جُلُوسَةً سَاجِدَةً بِأَمْرَاءِ ! ...
يَسْتَبْرُونَ كَيْفَ يَتَبَسَّرُ أَمَامَكُمْ الْعَمِيرُ ، وَيَسْهَلُ عَلَيْكُمْ الصَّعْبُ ! ...

سترون كيف تتلاقى الجهود ، وتتصافى النفوس ، ويتزائل
الخلاف ! ...

سترون كيف تنجز الأعمال فى طريقة عين ، دون حجاج
أو لجاج ! ...

خذوها منى ، كلمة مخلص أمين يرجو لكم الخير أجمع :
وحدوا من غطاء الرءوس ! ...

تستقم الرءوس ! ...

وتتوحد الرءوس ! ...

من وَحَى المعركة :

الشهيد المجهول ! ...

بَعَى الصغير ! ...

جئت اليوم أناديك ، أحبيك ، أتودُّ بذكراك ! ...
جئت أرفع الصوت بهذه التجوى ، وقد تقضت شهور منذ
أن تجلت بطولتك ، وتحدث الناس باستشهادك في سبيل وطنك ،
إني لأخشى في زحمة الأحداث الجارية ، وما يشغل الناس من
إرهاصات وتكهنات ، وما يتلبد في الآفاق من غيوم ، أن ينصرف
القوم عنك ، فيضيع اسمك ، ويشحب رسمك ، وتغدو نسياً منسياً .
جئت اليوم أذكّر الناس بك ...

أذكرهم باليتيم الصغير ، باليتيم الشهيد الذي لم يترك وراءه أباً
يتزحم عليه ، ولا أما يضطرب صدرها بنجواه ! ...
جئت أذكرهم بك ! ...

بالشريد الذي لم يعرف له في حياته مسكناً يأوى إليه ، فلها

فتسكت به شغلا يا القذاثف ، لم يعرف له قبرا يضم رفاته ! ...
جئت أقول في صرخة معولة :

لا تنسوا الشهيد الصغير ، ذلك الذى لم يتجاوز من عمره عامه
الثانى عشر ! ...

كل بطل من الشهداء له من يذكره أو يفكر فيه ، سواء أكان
من ذويه أم من موطنيه .

إن اسمه لا يعدم لساناً يلجج به ، أو قلباً يختلج له ...
أما أنت يا صنيبرى الحبيب فلم يكن أحد فى حياتك يعرفك ،
وأنت اليوم فى مماتك لا يكاد يعنى بأمرك أحد .
ظلمت مجهولاً فى حاليتك على السواء ! ...

لذلك جئت الآن أميط اللثام عنك ، وأرفع إلى العيون
طيفك ، لتبدو أمام الناس على حقيقتك ، تتحدث إليهم بقصتك !
لم أرك رأى العين ! ...

لم يقع بصرى على رسمك ! ...

لم يبلغ أذن صوتك ! ...

لم أسمع باسمك ! ...

لم يصل بينى وبينك سبب ! ...

بيد أننى أعرفك حق المعرفة ! ...

أنت ملء سمي وبصرى ووجدانى ! ...
إنى أحس وجودك كاملاً ! ...
إنى لأتصورك تتوابع فى الطرقات ، طليقاً فى خفة الطير ،
منتشياً بهجة الحياة ! ...
وإذا بأذنك تلتقط أصوات المذيعين وهى تعلن هجوماً على
بلدك ! ...

إنك لتترث فى السير ، وترهف السمع هنا وهناك ! ...
ثم تعود إلى التوابع ! ...
ولكن أصوات المذيع تلاحقك ، فتجذبك لتعود إلى
التقاط الأنباء ! ...

إنها تتحدث عن شريكك يحمل بالبلد الذى تحيا فيه .
إنك لتزى الناس تتجمع ! ...
وتحس اللغط يتعالى ، والأحاديث تتردد عن هجوم وشيك .
وتصفى إلى القوم يتواصفون طائرات تقذف بمظلات ، مظلات
تهبط إلى الأرض تحمل معها الهلاك والدمار ، مظلات لها ملابس
الحرير ، يتعلق بها أشخاص من حديد ونار ! ...
فيستهويك الوصف على الرغم من هوله . وتنصت له كما تنصت
إلى قصص الخرافات والأعاجيب ، يرويها لك عجائز الحى ! ...

وأراك تمثِّلُ بض الوقت ، وقد سرى فيك الخوف ، ثم
لا تلبث أن تعجل ساقك بالفرار ...
ولكن صوت المذياع يلاحقك ، ولغظ الناس يتحول إلى هتافات
تثير في قرارة نفسك مشاعر فوارة ، فيها حمية وجرأة واقتحام ...
وغدت أمامك تلك الأفواج الصغيرة كتلا من صفوف
متراصة ! ...

إن القوم ليحدقون بأبصارهم في أرجاء السماء ، ويصيخون
بآذانهم في جوانب الأفق ، يترقبون متحفزين ، وإذا أنت بين
الصفوف مزاحم بمنكبك ، تملو يبصرك كسائر الناس إلى أجواز
الفضاء ، وترهف سمعك لكل طارئة من الأضواء .
وجعلت تغدو وتروح وبين جنبيك وقدة من حماسة ونشاط ...
لقد استمددت من حولك القوة والبأس ، فلم يعد للخوف
عليك سلطان ! ...

وحلت الساعة الفاصلة ...
أصوات القنابل تدوى مثل قواصف الرعود ، وضوءها
يلتمع كخواطف البروق ...
أسراب الطائرات تسبح في الجو كأنها قطع السحاب ، لها
أزيز كأنه فحيح الثعابين ! ...

المظلات تنتثر هاوية، كأنها أفراخ النور في دنيا الأساطير! ...
كنت تشهد ذلك أيها الصنير، مأخوذ النفس، شدوه البال! ...
دوى شديد ، وأنوار سواطع ، وأجسام تتدلى من قباب
واسعة تزدحم بها السماء ! ...

ذلك يوم الهلاك الأكبر ، اليوم الذى تحدث به الناس ! ...
إنه لیسدو فى نظرك مهرجانا من نار ونور وضوضاء ...
مهرجانا طريفاً قد أخذ بمجامع قلبك ، وأنساك كل خطر ! ...
إن هيجة عارمة قد عصفت بين جوانحك . فهاهى إلا أن
انطلقت تتوائب وتتصايح واندفعت حيث اندفع القوم ، لا تلوى
على شيء .

بيد أنك فى اندفاعك لم تكن تعلم ما الذى تنتوى أن تعمل .
أمر واحد قد استحوذ على شعورك كله .
هو أنك ذاهب لتقاتل ! ...
هو أنك تقصد ميدان معركة دامية .
غير أنك لم تدرك ما القتال على حقيقته ، ولا كيف تقاتل
بالمعنى الذى يعرفه المحاربون .
لقد حماك من قبل السيوف والبنادق ، وخضت المعارك
الحامية .

ولكن ما حملته لم يكن إلا سيوفا من صفيح ، وبنادق من خشب .

ومواقفك التي خضتها لم تكن إلا لونا من عبث الطفولة ووطو الصبا .

أما اليوم فإن الأمر جد .

ثمة قتال حق ينشب عن كذب منك ، وإنك لتلني نفسك مقبلا عليه .

أساءات نفسك :

لم تقذف بنفسك في الأتون ؟ ...

لم تقاتل ؟ ...

أنت تقول مع القائلين :

سندفع عن أرض الوطن غاصبها المستلب ! ...

أوعيت معنى هذه الكلمات ؟ ... أم كان لسانك يلهج بها

هو حسب ؟ ...

أتفهم ما الوطن الذي تدفع عنه ؟ ...

ومن الغاصب المستلب الذي يريد أن يستعبد بلدك ؟ ...

لو سئلت عن ذلك لما استطعت أن تجيب ! ...

ليس هذا عيساً منك في قول ، أو تقصيراً منك في معرفة ! ...

تلك أمور لم يدركها عقلك تمام الإدراك بعد !...
إنما تدركها بصيرتك ، تفهمها غريزتك !...
أنت لم تتل حظاً من ثقافة ، ولم تزود بزاد من علم !...
أنت لا تستطيع أن تشرح بكلمات مبنية فصيحة ما الوطن ،
ولا من الغاصب المستعبد .
لم تتلق الوطنية درساً في معهد ، ولم تتلقها جملاً من أستاذ .
ولكنك تفهمها مع ذلك حق الفهم .
وفهمك لها يفوق علم المتعلمين ، وثقيف المثقفين .
إن الوطنية يا صغيري الحبيب كامنة راسخة في واعيتك الخفية ،
ورثتها عن آباءك ، خلفاً عن سلف .
أنت نحس بنظرتك البسيطة الساذجة بمصيرتك ، تحس من
تلقاء نفسك بأن هذه الأرض التي تسير عليها هي أرضك ، لأرض
غيرك . إنها لك أنت ، وليس لواعل دخيل أن ينازعك في شيء .
منها صغائر أو كبير !...
تلك هي الحقيقة التي لا يبلغ إليها تشكك أوريب ، الحقيقة
التي استلهمتها بوجودك ؛ كأنها وحى هبط من السماء عليك ،
وامتقر في وليجة نفسك ، وصرى في دمك ، وامتزج بأغناسك !...

أنت يا صغيري تفهم معنى الوطنية ؛ كما تفهم معنى « الله »
وواجب الوجود .

إنك تدركها بحسك ، كما تدرك « ألوهية » ربك بوجودك ،
دون أن تعلم من كنهه أمره شيئاً وإن قل .

الوطنية عندك أيها الصبي الأمل — دين مستقر في أعماق شعورك ،
أما عند غيرك فهي كلمات وجمل سامية المعنى ، جليلة الخطر ، تفهم
معناها بالعقل والانتظة ، ونبليغ أهدافها بالوعى والإدراك .

إذا سألك سائل :

لم تحب بلدك ؟ ...

تجلبت الابتسامة على فك ، ثم ألفت نفسك على الفور تنشد
نشيد الوطن ، متعالياً بصوتك ، وانطلقت تقفز وتترائب في
« نشوة ومراح .

نعم ! ... إنك لتحب بلدك ! ...

لأنه ليس لك من سبيل إلا أن تحبه أعشق الحب وأصدقه .

أما لماذا كان منك هذا الحب ، وما الذي دفعك إليه ، وما الذي
يفيدك منه ، فتلك دقائق لا يعينك من أمرها شيء .

لقد تخلق هذا الحب يوم أن تخلق ، وولد يوم أن ولدت .

إنك تحمل بذرتة وأنت ما زلت في طوايا الأحشاء جنبنا يتطور .

كنت يومئذ تستمد غذاءك ونماءك من تربة مصر الطيبة، ومائها
العذب ، ينعشك نسيمها الرخى ، ويحميك دفتها الحنون .

* * *

لقد خرجت مع القوم لتقاتل .
فإذا حملت من سلاح ؟ ...
إن القوم خرجوا يلقون الغزاة بما معهم من عدة القتال .
ومنها من خرجوا يقاتلون بالهراوات والأحجار ... !
أما أنت فلم تحمل معك شيئاً من سلاح أو شبه سلاح ! ...
كنت كلك سلاحاً ماضياً ... !
إن لك قدماً تركل ، ويداً تضرب ، ورأساً يصدم ، وأظافر
تمزق ... !

لم تحمل معك طبلاً ولا مزماراً يثير الحماس .
صيحانك أقوى وأحدّ من الطبل والمزمار .
وإنك لتتقدم إلى المعركة .
وسرعان ما يبتلعك معمعان القتال .
ثم إذا بك تحتى فجأة ، كأنك قبضة من مسحوق ذرتها
الرياح ...
لقد انتهت حياتك القصيرة على الأرض ... !

ولك أن تستقبل حياة جديدة أعز وأحفل في رحاب السماء ..
لقد مت في لحظة البصر ، وأنت لا تعلم ما الموت ، ولا كيف
يموت الحى .

وقد بحث الناس عن موتاهم ليواروهم التراب .
أما أنت فلم يسأل عنك أحد .
لا أب لك ولا أم ولا أهل ! ...
أنت اليتيم الشريد الذى عاش حياته القصيرة غريباً فى بلده
ثم مات دفعا عنها ! ...

* * *

اليوم وقد جلا المعتدى عن أرض الوطن ، وعاد « الأبناء »
إلى أحضان الأم الرموم ! ...
اليوم نحتفل بالنصر .
الأضواء تعود إلى المدن .
المهاجرون يرجعون إلى مواطنهم الحبيبة .
الناس فى فرحة يتبادلون التهاني ! ...
وأنت ؟ ...
أين مكانك فى هذا الحفل العريض ؟ ...
أين مكانك أيها الشهيد الصغير ؟ ...

أين مكانك أيها الشريد المنسى ؟ ...
إني لأرى صدرك العارى تمزقه الفذائف الغاشمة !
تعال إلى ذراعى يا بنى الحبيب ! ...
تعال لأحتضنك ، وأمزح دمعى بدمك ! ...
تعال أقبل جبينك الجريح الملوث بالطين والأوحال ! ...
تعال لأريح جسمك على صدرى ، وأستمع إلى خفق قلبك ،
وهو يودع الحياة .
تعال لأرى فى عينيك صورة مصر الخالدة . صورة مصر
الحقة صورة مصر الحية ، صورتها فى عينين يتزايل منهما نور
الإبصار ! ...
تعال إلى يا حبيبي الصغير لأضمد جراحك ! ...
ولكن أئمة من جراح تضمد ؟ ...
هناك جرح واحد كبير ...
هو أنت ! ...
إني أحسه ، ولكنى لا أراه ! ...
لقد تناثرَت هباء فى الفضاء ، وتطايرت طليقاً مع الهواء ...
إنك أيها الصغير الحبيب لا أكبر من أن يضمك قبر ضيق ! ...
إنك لأعظم من أن تحتويك حفرة مظلمة ! ...

ستظل في الفضاء النسيح تمرح دائماً مع النور والهواء .
لقد بسطت ذراعي إليك ، لأتلقى جثمانك ، وهانذا أردتهما
إلى صدرى فارغتين ! ...
يبد أنى ما زلتُ أمد بصرى في الفضاء الذى احتواك ، لعل
أبين فيه بعض طيفك ...

* * *

الأصوات تعود ! ...
والحركة تعود ! ...
كل شيء إلى سابق عهده يعود ! ...
ولكنك أنت يا بُنى الحبيب لا تعود ! ...
فلنرجع الأعلام في يوم النصر ، نسي مصر ، ونحي أبطال
مصر ! ...
ولنذكر دائماً ، أبداً ، بطل النصر الصغير ! ...
اليتيم الشريد ! ...
الشهيد المجهول ! ...

«دُسْتُورُ الْمُؤْمِنِ» «الْمُوَاطِنُ الصَّالِحُ»...

في ثلاث مَوَاد

«أنا وأنت من أهل هذا البلد ننشئ في عهدنا العتيق أسرة جديدة على أساس جديد ! ...

إنها أسرة وطنية شعبية تتصل بينها اليوم أسباب التعارف ،
وتتوشج علاقات القرى ...

أوقل إنها تربية سياسية أخذت الأمة بأسبابها ، واجتمع عليها
شملها ، وهي توشك أن تنتهى بها إلى تقارب فى الرأى ، وتشابه
فى الروح ، وتوحيد للأهداف ، على أساس من المساواة فى أداء
«الواجبات ، واقتضاء الحقوق ! ...

والأمة فى هذه الفترة التى يتوطد فيها كيانها ، ويقوم بنائها ،
«أحوج ما تكون إلى التواصى بما يكفل النضج الوطنى ، وينمى
«الوعى القومى ، ويخلق المواطن الصالح .

لا تظنن يا صاحبي أنى واقف منك فى حديثى هذا موقف
«الفيلسوف المنتصِّح ، يصطنع لك وقار الحكماء ، ويلقى عليك
«دروس الوعظ والإرشاد ! ...

لست إلا أخالك ، يتحدث إليك حديث تجربة في هذه الحياة ، عسى أن يكون فيها وميض من يتلسس الطريق ...

ولم أكن اساق إليك هذه التجربة ، لا أروحك فيها بغريب عنك ، أو جديد عليك ، ولربما كنت أنت بما أسوقه أبصر ، وعلى بيانه أقدر ، ولكنني أريد ببسطه لك أن تزداد به من إيمان ، وأن يكون لك منه تذكرة وانبعاث .

دونك دستور هذه التجربة ، وإنه لحقيق بأن يكون شريعة المواطن الصالح ، وبرناج الوصول إلى تربية قومية راشدة .

وأنت ألفت أن تجد الدساتير موفورة المواد ، ولكن هذا الدستور لا يزيد على مواد ثلاث ، واضحة الغرض ، مسلبة من التقييد ، لا تحتل التأويل والمجادلة ... فيها غمائم ووفاء ...

على أن ذلك الدستور يقتضيك بادیء بدء أن توطن له نفسك ، وأن تستقبله بتهيئة وإعداد ! ...

وأول ما تفتتح به في هذا الصدد ، أن تؤمن بالحكمة القائلة :
« البركة في البكور ،

فمالك إذن أن تهب من رقائك مع يقظة السكون ، وألا تظل في مرايح أحلامك ، وقد متع النهار ...

لكي تدرك روعة البكور ومبلغ أثره في تنشيطك ، وهى .

مفضله عليك طول يومك ، لزام أن تجرب ذلك بنفسك ، فتجتملى
بواكير الضوء ، وقد تسلك فى حواشى الأفق ، وتستشئ نسيم
السحر صافيا يترقق ، فلا تلبث أن تستشعر المرح والانتعاش ،
وإذا أنت صدرك منشرح ، وذهنك خالص ، وبالك ناعم رخي ...
بادر يومك مع الفجر ، فإنك إن فعلت أهديت إلى روحك
جلماً نيرة وثقة ، وأسبغت عليها تفاؤلاً ورضا ...

أرهف سمعك لأذان الفجر ...

ارتقبه بحيث يبلغك دعاؤه ...

ما أجمل أن تستهل نهارك بذلك الهتاف الخالد :

الله أكبر ! ...

فى هذا الهتاف يكمن سر الحياة ...

حقاً ، الله أكبر من كل كبير ، فإنه ليسط سلطانه على الكون
من حولك ، بيده الحركة وبيده السكون . فاسأله عوناً على أن
تكون فى يومك موفقاً ، تعمل الخير ، وتجزى جزاء الخير .

حقاً ، الله على عرشه فى السماء أكبر من كل كبير ، وأنت على
هذه الأرض بعونه كبير ! ... أودعك من قوته ، ونفخ فيك من
روحه ، وحملك رسالة الحياة : رسالة الحق ، والخير ،
والعمران ! ...

إليك النور يولد فى عرض الأفق ، قبسة لمحة بهيجة ،

لا تابت أن تنمو وتستطير !!!

قل لنفسك :

إنه ميلاد يوم جديد ! ...

بل قل لنفسك .

إنه ميلاد شخص جديد ... ميلادك أنت في هذا اليوم ، بعزم

صاقد ، وأمل وطيد !!!

ابدأ يومك ناشطاً بهيجاً كهذه القبسة الناشطة البهيجة من ضوء

الصبح ، وكلما ازدادت القبسة من نماء وبسطة زادت روحك معها

من بسطة ونماء ! ...

رتل في مطلع يومك هذا الدعاء :

أحمدك يارب على أن وهبتني الحياة ، فما الحياة إلا نعمة تهبها

عبادك ، سبيلاً إلى عمل صالح ، ووسيلة لبلوغ هدف رفيع .

ليكن هذا الدعاء أول ما تحرك به لسانك في نهارك ، مستمداً

من روحانيته السامية ثقة بالنفس ، وعزماً على الكفاح .

إن الدنيا كلها من حولك تعلن لك أن هذا يوم جديد ، وأن الجددة

فيه تتغلغل في كل شيء ، ولست أنت إلا بعض هذه الدنيا ، فلا

يفوتك أن تأخذ حظك من هذا التجديد بأوسع معانيه ! ...

تلك هي السماء من فوقك تبعث قطرات الندى في مبرق الصبح ،

مترسلا على هام الكون ، ليهبه الطهر والنقاء والصفاء ... وإن
الأنداء تهبط على الأزهار والرياحين تنفي عن صفحتها الغبرة
والكدر ، فلا تنس نصيبك من ذلك الندى الصافي ، نلتمس
لنفسك منه تطهيراً وتنقية .

سنة الله في خلقه أن يكون التحول من حسن إلى أحسن ، وأن
يجرى التطور من درجة إلى درجة هي من الأولى أفضل ، فلتؤمن
بسنة الله ، وتعلم أنك في يومك خير منك في أمسك ، وتكن كفتاً
لهذه السنة التي هي عمود الحياة . فتعمل على أن تكتب في هذا اليوم
لنفسك خطوة إلى الأمام ، وتسجل لها نقلة في سبيل الكمال ...

إياك أن تحسب ماضيك خيراً من حاضرك ، وحذار أن تعد
حاضرك خيراً من مستقبلك ، فإنك إن فعلت كنت المارق الجاحد
لسنة الله ، تخرج على طبائع الأشياء ، وتكفر بحقيقة الوجود ،
وتنكر تاريخ الحياة البشرية على ظهر هذه الأرض ، ذلك التاريخ
الآخر باطوار رائعة في مضمار الحضارة والعمران ...

لقد واثقت الحياة بفسحة يومك هذا ، لكي تعمره بعمل ،
وتدعه يجهد ، فابذل فيه ما لم تستطع أن تبذل أمس ، واستكمل فيه
ما بدأت من قبل ، واجعل منه في سعيك وجهادك مجال تثير لما كسبت
من خبرة ومراة واقتدار ...

الطبيعة في تجدد ، والكون في تطور ، والدنيا تنساح من قبة إلى قبة ، فإن أنت ركنت إلى تقاليد الماضي ، واستكنت لذكريات الأسس ، نسجت حولك من هذه التلايف أكفاناً تفصل بينك وبين موكب الحياة ! ...

إذن أنت للحياة عدو ، وإن الحياة لأقوى منك ، فلن يقف ركبا طوعا لك ، ولن تستطيع أنت لتيارها تعويقاً ، ولستنها تحويلاً ، فهي ماضية لا تلوى عليك ، وهي قاسية لا ترثى لك . بين يديها خطة ، ونصب عينها هدف ، فإما كنت على تأييد خطتها عاملاً ، وفي سبيل هدفها ماضياً ؛ — فأنت معها تسعى لخير الإنسانية ، وتبني صرح الحضرة .

ما وقوفك على أطلال الماضي تيكيه وترثيه ؟ ...

هذا حاضرک ماثلاً ، يقتضيك أن تفرغ له بجهدك ونشاطك ورجائك دلائله لك مطواع ، في مكنتك أن تقومه وتسويه ، وأن تجعل منه لبنة يتوطد بها كيانك ، ويرتفع بنيانك ! ...

لا يكن مثلك كمثل الذين تجمد أذهانهم ، وتخدمهمهم ، فتستهلكهم الآفات الثلاث : الحسرة على مافات ، والنقمة بما هو حاضر ، والخشية من الغد المحجوب ! ...

أولئك فلول هزمتهم معركة العيش ، فتركهم صرعى عجز ، وفرائس إخفاق ...

أولئك ليسوا من زمرة الناس ، فما هم إلا مزق إنسانية انفظتها الحياة ، وذلك هو الجزء المحتوم لمن يطمس اليأس بصره ، فلا يرى شيئاً يمكن أن يكون أفضل مما كان ! ...

تجنب هؤلاء العجزة المهازيل ، وتلاف أن تسرى إليك عدوى نفوسهم الخوارة ، وهمهم القاعدة ! ...

واعلم — علمت الحق — أنك سيد نفسك ما أردت ، وليس في مقدور غيرك أن يتولى قيادك ما شئت . فأنت أنت ربان مصيريتك ، في يدك وحدها دقة النسيير والتوجيه ! ...

المرء في الحق صانع حياته ، وكل امرئ وصنعتة . ومهما تكن وظيفة القيود والعوائق فإن حدة العزيمة ومهارة الخيلة خليقتان أن تذللا للصانع ما يعترضه من عقبات .

المرء في الحق صاحب إرادته ، من دخيلة نفسه يستمد طاقة هذه الإرادة وحرارتها الدافعة ، فإذا ظلت هذه النار واقدة متوهجة تبعث وتدفع ، فالمرء في طريقه مقتحم غلاب ! ...

لا يبعثك التخاذل على أن تقول : بهذا حكم القدر . ولعمرك ما القدر ؟ ... وهل القدر إلا أنت ، سره فيك كامن ، وهو بين جبريتك يعتليج ، وعلى يديك آثاره تبدو ... فكما تحب لنفسك تكون : قدّر ، سعد ، أو قدّر نحس ! ...

فيا من أنت سيد نفسك ، ويا من أنت صانع حياتك ، ويا من
أنت صاحب إرادتك بل يا من أنت الذى بيدك تكتب قدرك :
اجعل يومك أفضل من أمسك ، واعزم أن تكون فى غدك
أفضل منك فى يومك ...

هبك صريع مرض أرحايف عاهة ، ولتكن فى مدرجة
الحياة ما تكون : فقيراً أو ذير فقير ، ميسور الأعوان أو غير
ميسور ، سابقا فى صفوف الناس أو ذير سابق ، فأنت — على
الرغم من كل شيء — قادر على أن تبلغ غاية تستشرف لها العيون ،
وأن تبني عظمة تدين لها العقول ...

احذر ما وسعك الحذر أن يتملكك ذلك الوهم الذى يتملك
سواد الناس ؛ إذ يحسبون أن الفوز والتبريز مقصور على دائرة
معينة ، وأن له أسبابا محدودة ، ومسوغات مخصوصة ، فيدعوهم
هذا إلى أن يقيسوا أنفسهم بذلك الدائرة ، ويتفقدوا فى أنفسهم
تلك الأسباب والمسوغات ، حتى إذا رأوا حظهم منها منقوصاً
بأدوا بالحسرة ، وأيقنوا بالخيبة ، ورجعوا ينشون على الزمن أنه
حرمهم ذلك السلاح ، وأخلأهم من هذه الأدوات ...

لتؤمن أصدق الإيمان بأن ضروب النجاح لاحصر لها ، وأن
ميادين الكسب تفوت الإحصاء ، وأن نواحي المجد والجاه متراصة

الأطراف ، بها لكل مسعى مجال ، وعندها لكل همة مقام ، وفي أرضها لكل غرسة منبت ... فالطامح إلى مآرب لا يعدم سلباً يبلغ به ما يشتهي ، مهما يكتنفه من الأحوال والملايسات ! ...

فلا يمنعك مانع تنكره من خاصة نفسك ، ولا يحبسك عائق تضيق به في مجرى حياتك ، من أن تكون طموحاً إلى ما تريده ، طلاعاً إلى الذرى ؛ فابتغ السلم الذي يرقى بك ، واعمل في الدائرة التي وجدت نفسك فيها بحكم طبيعتك وملكاتك وبيئتك ، فإنك تستطيع أن تكون شيئاً مذكوراً مهما يكن من أمر ! ...

وحسبك — إذكاء لطموحك ، وإمداداً لتعبك ، — أن تعتقد بأن يومك خير من أمسك ، وأن قابل أيامك أفضل من حاضرك .

ولتستمسك بهذه العقيدة وإن عدوت طور الكهولة ، وعلت بك السن ... ولشد ما تجنى على الحقيقة إن ذهب بك الظن في شيخوختك إلى أنك قد أبليت ثوبك ، وطويت بساطك ، واستنفدت حظك من زمانك ودنياك ! ...

ألسنت وأنت شيخ قد نأيت بجانبك عن غمرة الحياة ، وانسلت من زحمة الناس ؟ ... أو ليس مكانك قد أصبح مكان المثل من مرقبة ، يجد الغمرة أمامه تتدفع ، ويشهد الرحمة دونه تضطرب .

وهو في مناه عنها آمن مطمئن لا يعوزه البصر بحقائقها ودقائقها ،
ولا يمييه استيعاب جوانبها ومراميها ؛ — وإذن يتوافر استعداد
لاستخلاص ما تتمخض عنه من جوهر ولباب ؟ ...

فأين للشباب مالك في هذه السن من استقرار واتزان ؟ ...
عقلك أنضج ، وذهنك أصنى ، وعاطفتك أبعد عن نزق وتهور ،
وحكمك أقرب إلى صواب وعدل ، وتجربتك عاصمة لك من
الضرب في متاهات ومزالق ...

فليهنك — يا شيخ — ما تسمأ نف من غد هو أجدى عليك من
أسس الدار ، ولتستمرى ، مستقبلاً أطيب لك من ماضيك الغابر .
هأنذا قد وقفتك على فخرى المادة الأولى من دستور المواطن
الصالح ، وكأنى بك تصوغها معى في هذه الكلمات :

«سائر الطبيعة في تطور وتجديد، واجعل من ميلاد يومك ميلاداً
لنفسك ومشرقاً لأمالك . واستيقن أنك في يومك حتماً خير منك
في أمسك ، وأنت في غدك — لا بد — خير منك في حاضرك ! ...»
والآن وقد طالمت يومك بهذه الروح ، يشرح التفاؤل
صدرك ، وتملأ الثقة ما بين جوانحك ، لتست إلا واجداً نفسك
فاشطاً للعمل ، دأباً فيه .

أعمال أنت أم متعطل ؟ ...

لزام أن تؤمن بأن الحياة عمل ... عمل يضطلع به الحي
ما دام حياً ! ...

فإن كنت ممن لا يعملون في هذه الدنيا ، أخرجت نفسك من
عداد الأحياء ، وأصبحت ميتاً غير مقبور ! ...

ولكن الميت لا يشرك الحي في النور والهواء ، وأنت في
تعطالك متطفل على الأحياء ، تقاسمهم ما هو حق لهم وحدهم من
الهواء والنور ! ...

طبايع الأشياء تقضى بأن العضو إذا لم يعمل كان مصيره الضمور
والاضمحلال ، فإن أبيت إلا أن تكون في جسم الوطن ذلك
العضو المتعطّل ، فأبشر — يرحمك الله — بعاجل فناء ! ...

نظام الحياة أن يؤدي فيها كل كائن عمله ، وللحياة الغلبة على
كل ما يعرقل سيرها ، وهي تلتظ من الوجود كل ما يخرج على هذا
النظام ، فأنت حين تعاند بتعطلك نظام الحياة ، محكوم عليك
— لا محالة — بالإقصاء ! ...

العيش معركة موصولة ، وأبناء الوطن وجنوده في كسب هذه
المعركة ، فالوطن المتعطّل جنسدى يشق عصا الطاعة ، ويقترف
خيانة الوطن .

الخدمة الوطنية لا يقاس شرفها بمظهر العمل وأهنته ... وإنك

«أهل أن تتلقى راية المجد الحق ، قائدًا كنت على رأس الركب ،
أو فردًا في أعقاب الصفوف . فالنصر لا يتم لجيش إلا إن اتسقت
له عبقرية القائد الكبير ، وبقظة الديدبان الصغير .

ما أشبه مرافق المجتمع بآلة دوارة معقدة ، فهي متباينة الأجزاء ،
مختلفة الحركات ، يترتب بعضها على بعض ، وتجرى كلها على
نسق ، هادفة إلى غرض ... أرأيت إلى غلظة هذه الآلة كيف
تنهار كل الانهيار ، وإلى حركتها كيف تقف كل الوقوف ، إن
اختل من نظامها جانب نافع ، أو نطال من أدواتها مسبار
صغير ؟ ... ذلك شأن المجتمع في شتى مرافقه ، على تباين الدرجات
فهي كلها تتناصر وتساند ، لا يفخر لكبير منها على صغير ، ولا ميزة
لكثير منها على قليل ، ما دام كل امرئ يؤدي عمله المنوط به في
تلك الآلة الدوارة ، لكي تضطلع بمهمتها في تناسق وتوافق ونظام ...
نواة النجاح في عملك أن تكون له أهلاً ، وأن تكون بمواهبك
«له كفئاً ، وأن يلائم ما أنت له مخلوق ... فحاول ما استطعت المحاولة
أن تتعرف خصائص نفسك ، وأن تتبين كوامن مواهبك ، لكي
تتجنب من الأعمال ما يجافي هذه الخصائص ، وما يتنافى تلك
«المواهب ، حتى لا تضرب في حديد بارد ، وتسلك طريقاً ليس
بلك فيه مسار ...»

إذا أخذت في عمل لا يؤائمك ، ولا تنهياً له كغايته ، فإنك فيه أحد اثنين : واغل دخيل ، أو راغم الأنف معلوب على أمره ، وكلاهما لا يظفر منه العمل بتجويد واقتنان ...!

إنما أنت في هذه الأعمال التي تكابدها على غير كفاية ، وتزاولها دون هوى ، كمثل من يسوقه الطمع في الاغتنام حيث كان ، أو تدفعه يد السخرة غير مختار .

فأما إن وصلت نفسك بالعمل الذي خُصِّلت له ، فإنك ستهب عملك جوهر نشاطك ، وتبذره زبدة فكرك ، غير منهوم بما يكون من كسب ، ولا نادم على ما تبذل من مجهود ، وذلك هو باب التفنن والتسامي ، وتلك هي سبيل الإجادة والإبداع ... ومن هنا يظفر المجتمع بجديد من وحي الفن ورائع من صنعة الفنان .

وإذ عرفت هذا ، فاكتب معي صيغة المادة الوسطى من مواد دستورنا الثلاثي الأطراف :

د اعمل دائماً ، فالعمل ضريبة الحياة على الأحياء ، واختر من الأعمال ما يساير مواهبك ، ويمازج خصائصك ، حتى تكون بينك وبين عملك ألفة واستجابة ، فترقى فيه مراقي الإقتان ، ... أنت إذن مستبشر في يومك ، متفائل بغدك . وأنت إذن تعمل ناشطاً بعملك الذي تهيات له ، فتجوده ما طاب لك التجويد

وتتفنن فيه ما وسعك أن تتفنن .
خيراً فعلت ، وعلى بركة الله خطاك ، ولكن بقي شيء عليك
أن تدعم به منهاجك في سعيك أجمع .
لامرية في أننا جميعاً نعمل واعين أو غير واعين لغاية طبيعية
مرسومة ، تلك هي البقاء ... البقاء على أحسن ما يمكن أن
يكون بقاء ! ...

غريزة حفظ النوع هي التي تهيمن على الحي في كل تصرفاته
من سلب وإيجاب ، وهي التي تمده بشقي الخصال والنزعات ، ماساة
منها وما حسن ! ...
ولعل في طبيعة ما يدعوك إليه حب البقاء أن تكون موصوفة
بالآثرة والأمانة ! ...

لا تكن أحد أولئك المزمتمين المتحذين الذين يعافون مثل هذا
الوصف للإنسان ، ويرونه عاراً وسباً ، ويحسبونه شراً كله ! .
جوهر تلك النزعة حق وخير وعدل ، وهي دعامة يقوم عليها
صرح البناء والارتقاء .

بيد أن النزعة إذا عُدَّت طوراً وجاوزت حدها ، فسدت
أمرها ، وفقدت ميزتها ، وكانت وبالاً على صاحبها ونكالا للحياة ،
والأحياء ! ...

إذا أرخيت العنان في عملك لأثرتك وأنايتك ، حصرت
نفسك حول نفسك ، وقصرت شعورك في دائرتك ، فلم تبال
ما يكون من حولك ، ولم تعبأ بما يصيب سواك . وإذن تنقلب
عنصر هدم ، وأداة تدمير توقع الأذى بالناس ، سادراً لا تثرى
لأحد ، جموحاً لا تلوى على شيء ...!

كن في عملك أثراً ، وكن أنانياً ، ولكن بالقدر الذى تريد
غيرك أن يكونه ...!

مثل لعينيك أن اشباهك الناس يتخذون لأنفسهم مثلك في
أعمالهم أثره مطلقة ، وأنانية متغلغلة ، وأن كلا منهم لا يعنيه غيره ،
فكيف يكون مصير ذلك الحشد الذى يتهارش ويتطاحن
ويتناهب ؟ ... إنها حرب أهلية ، يثيرها بعض على بعض ، فياكل
بعضهم بعضاً ، وتنتهى بهم جميعاً إلى خسارة وهزيمة وفناء ...!

اعتدل في أنايتك ، والزم حد الأثرة النافعة ، حتى تصيب
من الحياة مآربك في غير إيذاء لمن حولك ، وإضرار بسواك .
كما يدعوك حب البقاء إلى أن تكون أنانياً ذا أثره ، يدعوك
أيضاً إلى أن تكون تعاونياً بطبعك ... فلتعجب لفريضة حب
البقاء كيف تجمع بين النقيضين من نزعة فردية أصيلة ، ونزعة
اجتماعية لا تقل عنها أصالة ...!

فلتؤمن بضرورة التعاون يا صاح !...

ولتعلم بأن الإنسان ليس وحده الذى يختص بطبعه الاجتماعى
ونزعته التعاونية ، فأنت ترى الطير أسراباً فى مسارج الجو ،
والحيوان قطعاناً فى أعراض الفلاة ، وترى النحل خلايا متجمعة ،
والنمل سرايا متدفعة ، وترى أجناساً وضروباً من خلق الله ، عليها
طابع التعاون ، وفيها روح الاجتماع !...

لئن كانت خصلة الأثرة قد أخرجت الإنسان من الطور
البدائى إلى طور التحضر ، متقد العزم ، عظيم الهمة ، شديد الأسر ،
إن فضيلة التعاون هى التى يسرت لذلك الإنسان معجزات المدنية ،
وارتقت به فى سلم الاجتماع إلى مقام كريم .

التعاون سلاح أعدته الطبيعة لحماية الحى ... تحت راية هذا
التعاون تخلقت الأسرة فارتفع للبيت جدار ، ومن وحدات الأسر
تجمعت القبيلة فكان لها محلة وسوق ، ومن تلك القبائل المترابطة
نشأت الأوطان وتميزت الشعوب .

لا تقل : « أنا ، فى حياتك أبداً . بل قل : « أنا ومن معى » ...
إياك أن يكون مشاك كمثل تلك الهناة الدوارة التى يلعب بها
الطفل ، فهى تدور على محورها ولا تنمأ تدور ، حتى تسقط من
الإعياء ، فما أشبه حال تلك الهناة بحال الإنسان الذى يحسب نفسه

محور الدنيا . فهو يدور جاهداً حول نفسه ، حتى ينتهى به الدور إلى سقوط ، ويذهب مجهوده أدراج الرياح ...!

الأخلاق المتباينة تعمل في تحقيق السعادة عمل العقاقير المختلفة . في تركيب الدواء الناجع . نفع من الأثرة ومن الإيثار مزاجاً يصلح به أمرك ... لا تكن في الأثرة صاحب إفراط ، ولا في الإيثار صاحب تفريط ... لا تسرف في أنايتك وطماعتك ، ولا تشطط في بذل نفسك ، والتهاون بحقوقك ، وبين الطرفين منزلة فيها سعادة الفرد وخير المجموع .

ولقد آن لى أن أدعوك إلى صوغ المادة الثالثة الأخرى من ذلك الدستور الذى نحن بصدده ، فاكْتُبها إذن على هذا النحو :

« امض فى عملك ، ناظراً إلى نفسك ، ولكن لا تغل فى أثرتك وأنايتك ، فتهدم المجتمع الذى أنت عضو فيه . فاعرف حق مجتمعتك عليك ، كما تعرف حق نفسك ، وكن تعاونياً تستوحى خير المجموع . »

ذلك دستور حياتك فى ثلاث مواد ، أسلفته لك واضحا يسيراً . لا غرابة فيه عليك ولا استعصاء . حقائقه أنت بها عليم ، وأصوله . أنت بها مؤمن ، فلا سبيل يبنى وبينك فى شأن هذا الدستور إلى مختلف نزاع ...!

دَرْسٌ لَا أَنْسَاهُ!...

لو أن متصفحاً يتتبع سيرة «أحمد تيمور»، فيتعرف كيف كان ورعاً شديد الورع، متخرجاً بالغ التحريج، مطبوع النفس، على حفاظ وانقباض، مؤثراً للعرلة ما وسعه الإيثار، زاهداً أيماً زهد في حومة الحياة وملتطم الناس... فأى نهج يتشله المتصفح لصاحب تلك السيرة، حين يعامل بنيه، في ذلك العهد البعيد؟... وعلى أى نحو تراه يسوس فلذات كبذه، وهو لهم راع، وعليهم رقيب؟... ألقىت على نفسى هذا السؤال؛ لأجيب عنه بما شهدت، لا بما يعتمد إليه متصفح السيرة من تكهن واستنباط؛ فما راء كمن سمع، ولا من خال كمن تخيل... ولعل الجواب ألزم بى، أنا الذى كنت أحد أبناء «أحمد تيمور» حوله، فشهدت كيف كان يقوم على تربيتنا ونحن إخوة ثلاثة، متلاقون على عاطفة وشعور، وإن اختلفنا فى الميول والنزعات بمحض الاختلاف!...

فى تلك الحقبة التى انشأنا فيها، منذ نصف قرن مضى، كانت التربية المنزلية تبيح للآباء تحوير أبنائهم ضرورياً من القيود، كما تفرض.

على الأبناء لأبائهم ألوانا من التقاليد ، فما كان لولد أن يسلك غير المسلك الذى يرضاه أبوه ، وما كان لأب أن يدع لولده فى مراحه ومغده سبيلا إلى نكاك ... فالإمرة حق الأبوة ، والطاعة واجب البنوة ، ومن شدة من الآباء لا يأمر فهو متهاون . موصوف بالتفريط ، ومن تمرد من الأبناء لا يطيع فهو مستخف موصوم بالعقوق ... ولم تكن للأبناء حيلة أو وسيلة إلا الملاءمة بين ما يأخذهم به آباؤهم الحكام المسيطرون ، وما تهفو إليه نفوسهم الغضة التواقفة إلى الحرية والانطلاق . وكانت هذه الملاءمة هى المخادعة والابستخفاء ، وهى التفتن فى إبداء الطواهر على الوجه الذى لا يثير غضبا ولا ملامة ، فلكل ولد مهربه إلى مأربه ، فى ستر من الله أو ستر من الشيطان ...

وكانت الفنون والحرف فى تلك الحقبة الغائرة تتفاوت درجاتها فى تقدير الناس ، فمنها الرفيع ومنها الخسيس ، وربما كان فن الصحافة وفن التمثيل أو حرفهما أجنس الفنون والحرف نصيبا من حظوة العامة والخاصة على السواء ؛ ولعل الجمهور يومئذ كان يتخذ من ألقاب السوء والإصغار لقب « الجرنالجى » . ود الشخصاتى ، ... « فإن تَوَلَّعَ بالصحافة أو التمثيل كرم على أهله ، تمصصوا شفاههم رحمة له ، وأشفاقا عليه »

وحسبى فى تجلية ما كان من صديق أينا فى تربيته لنا ، وإشرافه علينا ، فى تلك الحقبة التى أسلفت وصفها ، أن أذكر أننا فى منزلنا الذى كنا نأوى إليه ، ونحن من أيننا على مقربة ومراقبة ، أنشأنا لأنفسنا صحيفة خاصة ، نصدرها فى المرة بعد المرة ، وأقننا مسرحاً للتمثيل ، نخرج فيه الروايات واحدة بعد واحدة . كنا نحن ومن أخذنا من الصحب ، تتولى فى الصحيفة مهمة التحرير والطبع والنشر ، كما نضطلع فى المسرح بشئون الإخراج والتمثيل والتفرج ، والانتقاد ! ...

وامتلك قيادنا على مر الأيام هوى الصحافة والتمثيل ، فتعلقنا بهما كل التعلق ، وتعمقنا فيهما كل التعمق ، حتى إن أوسط الإخوة : « محمد » زاول التمثيل فى المسارح العامة على أعين الناس ، وحتى : « إنا » معنا أصدرنا صحيفة « السفور » خالصة للأدب ، منشورة على الجمهور ، وبذلك أصبحنا نعد من محترفى الصحافة أو أشباه المحترفين ! ...

وكنا نرى أباننا يتمتع من ذلك شيئاً ، ولكن فى ترفق واتشاد ، وبنهانا عن التماذى والسرف ، ولكن فى غير جزم ولا مصادرة . ويتحيل لتوجيهنا إلى الدرس والاستذكار ، دون أن نحس منه وطأة التوجيه ومرارة الإلزام . ولم يكن يقف فى طريقنا إلى ما يعده

الآباء من لحو الصبا وعبث الشباب ، وإنما كان ينجح إلى محاسنة
وملاينة ، فيناقشنا مناقشة الأنداد للأنداد ، ويشير علينا بما يحب
ويرضى ، تاركاً لنا أن نسلك السبيل الذى نختار ...

عاش بين التلال من كتبه ، فلم يأخذ أحدنا — نحن أبناءه —
بأن يكون معه ، يقرأ له ، أو يملئ عليه ، أو يستمل منه ، أو يطالع
بجانبه ، بل يدع ذلك لأنفسنا خاصة ، شئنا أو أبنا ، فلم يفرض
على أيّنا أن يحذو حذوه فيما يستن من سنة وما يرتضى
من سلوك ...

ولمى أجرى اليوم قلبى بهذه الأسطر ، وأنا على مكنتى ،
تحيط بى أصونة الكتب ، بما اقتنيت أو ألفت ، وأذكر أنى مازلت
أسير مثل هذه الجلسة منذ عشرات الأعوام ، كما كان يصنع أبى
فى حياته السالفة ، على مكتبه ، بين كتبه ، وقد غاب عني محيّا منذ
ربع قرن ... فتسأب بى التأمّلات ، وأرانى أعمد جبهتى يدي
أقول لنفسى :

ترى لو كان أبى الزمنى مكتبته ، وقسرنى على أن أخط خطته ،
أكنت أحفظ عهده ، وأحمل أمانته ، بعد أن طواه الردى ، ومضى
به ركب الأيام ؟ ...

لقد أثر أبى لأبنائه حرية التصرف وحرية الانطلاق ...

وكان يمنحهم هذه الحرية في إطار من حنانه وتعبه ورعايته ،
فإذا هو من حيث لا يرون يملك عليهم كل سبيل ، ويأخذونهم
كل منفذ ، وإذا هم من حيث لا يدرون يَسْقُفُونَهُمْ خطاه ،
ويتنسمون ذكراه ، وكأن لهم منه نداء يحدوهم من وراء الغيب ،
فيستجيبون له في طواعية واستسلام ... !

ذلك درس علميه أبي في صمت . والدرس الصامت لا يتطرق
إليه النسيان ... علمني أبي معنى التربية الحرة الواعية ، تلك التربية
التي هي أملك للنفس من قيود الغرض والإرغام ... !

هل من مبارز؟...

كان في الزمن القديم «تقليد» يأخذ به أهل الحجى والرأى
والمكانة لفض النزاع بين القبائل والقضاء على الخصومات حين
تتأزم بين الأقوام وتندرب بحرب مستطيرة . وكان هذا «التقليد»
يطغى جذوة النار قبل أن يتوهج لهيبها ويمتد شررها وتعم وبلااتها
الناس أجمعين ، كان هذا التقايد يتميز ببساطة مظهره ويسر إجراءاته
مع ما ينطوى عليه من رأى بالغ الحكمة !...

ويتلخص هذا «التقليد الحربى» فى أنه إذا صعب التوفيق بين
بلدين متخاصمين اجتمع أهل الرأى من البلدين وانتخب كل فريق
زعيماً من الزعماء المشهود لهم بالكفاية الحربية ، وطلباً من الزعيمين
أن يتبارزا . وبعد انتصار أحد الزعيمين تصفية للموقف وعقد
صلح شريف بين البلدين يقر به السلام !...

بهذه الوسيلة استطاع المجتمع القديم أن يتجنب وبلاات
الحروب ، مكتفياً بدفع زعيمين لا ثالث لهما فى ميدان المعركة ،
مضحياً بواحد منهما أو بهما معاً فى سبيل حياة الشعوب !...
فإذا لا نطالب باتخاذ هذه الوسيلة البدائية الساذجة التى

تنطوى على حكمة سديدة ، لنقرأ بها الحروب فى عصرنا الراهن !
لماذا لا يخرج مثلاً « أيزنهاور » فى الميدان العالمى حاملاً سيفه
ورمحہ ، أو بتعبيرنا العصرى : حاملاً « قنبلاته الهيدروجينية »
ويصيح مردهداً فى مكبر الصوت الذرى :

هل من مبارز ؟ ... فارس لفارس ؟ ...

فيرز له من الشرق « مالنسكوف » الروسى ، متحدياً ، يحمل
تحت إبطه كراته السحرية الجديدة ! ...

فيجولان ويصولان لحظات معدودة ، ثم يرتفع دوى هائل
يبلغ مسارى الآفلاك ، فى دورتها الأبدية .

وينقشع الغبار ، فلا نجد أثراً « لاي زنهاور » ولا « مالنسكوف »
وتطل شعوب الأرض من شقوقها تستجلى الأمر ، ثم تخرج متمللة
فرحة ، يتعانق أفرادها ، ويهنئ بعضهم بعضاً بإخاء وسلام
وصفاء ! ...

إنهم لن يقرؤا نصراً ولن يعترفوا بهزيمة ، فلن يجدوا الزعيم
الذى يباهى بغلبته على خصمه ! ... لقد فتكت بالزعيمين
أسلحتهما المدمرة ... لقد تطايرا فى الفضاء ذرات تسابق ذرات
قنابلها الذرية ...

... وكفى الله المؤمنين القتال ! ...

فَنُ الصِّغَاءِ

لم يكن لغواً ما أفاض فيه أهل الخنكة والتجربة ، من الإشادة بالصمت ، وتبيان ما له من فضل ... !
ولم يكن عبثاً لإجماع الأولين على جسامته ما يلقاه الإنسان ، من عثرات اللسان ...
وقد أوجزت الإنسانية هذه الحقيقة الكبرى ، في الحكمة البالغة التي تقول :
« إذا كان الكلام من فضة ، فالسكوت من ذهب ... ! »
وما أصدق من يقول :
إن شئت أن تكسب صداقة محدثك ، فكن على الإصغاء إليه ، أحرص من أن تتكلم ... !
والحق أن الصمت فضيلة ، لا يدرك مزيتها إلا الراسخون في فلسفة الحياة ... !
ولكن ما الصمت ؟ ...
يخطئ من يحسبه عملاً سلبياً ، أو — بتعبير أدق — : إمساكاً عن العمل ... !

ليس الصمت عزلة بين الصامت وما حوله ؛ ولا بينه وبين نفسه ! ...

العزلة جهود وتوقف ؛ فأما الصمت فهو حركة وحياة ؛ أو لعله من خير ألوان الحركة والحياة ! ...
ليس للصمت معنى إلا أنه دإصغاء ، وإن كان الإصغاء ضرباً وأنانير ! ...

إذا عقل الإنسان لسانه ، وأطبق شفثيه ، فكأنما هو يهيم بنفسه للاستقبال أنواع شتى من الأصوات والهواتف والمناجيات .
ولهذا الاستقبال موردان :
أحدهما : خارجي ! ...
والآخر : باطني ! ...

فالمرء الأول يوافق بما هو خارج عن نفسه ، والمرء الآخر يصل بينك وبين سريرتك ! ...

ولا ريب أنك غير مستغن عن ذلك المورد الخارجي الأول ، ولكنك إلى المورد الباطني أشد حاجة ، وهو لك أكبر جدوى ! ...

أفأنت أن كونه الشخص يكمن فيه مدياع عجيب ، يستطيع أن ينقل إليك أدق خصائصك ، وأصدق أخبارك ، وأن يقف

بك على دنياك الخاصة ، دنياك الزاخرة بالحفايا والأسرار ؟ ...
لو عرفت كيف تدير مدياعك ، لتفتحت لك المغاليق من
طواياك ، ولسمعت أدق الخلجات في مشاعرك ، مكشوفة عنها
الستار ، مجلوة في صراحة واعتراف ...
ولربما راعك ما تسمع ، واقتنعر منه بدنك ، وتزلزل له
كيانك ، فبدوت في خزي وتصاغر ، ولم تعرف كيف توارى
نفسك عن نفسك ! ...

ولكنك على أية حال تحس بأنك قد كسبت غنما بما عرفت
من خفية أمرك ، شأن المريض حين ينكشف له من علته ما تعاصى
عابه فهمه ، فيعد ذلك غنما ليس بالقليل ...
وما أكثر ما يكشف المدياع فيك من سيئات ومناقص ! ...
لتعرفن أنك أ كذوبة بارعة ، تسترها غلائل أنيقة ! ...
أ كذوبة على القريب منك ! ...
أ كذوبة على البعيد عنك ! ...
بل لمنك لأ كذوبة من نفسك على نفسك ! ...

ولسأني بك قد ضقت بهذه الحقائق التي جاهر بك بها عقلك
الباطن ، فرأيت الدنيا صفحة سوداء حيا لك ، واستشعرت
الإضرار بهذا المجتمع المشوب بالأضاليل ، وتجلى لك زيف الجماع

وما إليه من عروض الحياة ، شائها تافها لا يزن جناح بعوضة ! ...
فلا تملك — وأنت في غمة من أمرك ، نائر متمرد — إلا
أن تتلمس في غير هذا المجال فرجا ، وتتسم في غير ذلك الأفق
متنفساً ، فإذا بك قد ملت على المذبايع تدير أزراره ناحية أخرى ،
ومن ثم يرقى إلى سمعك أنغام موسيقية فيها رقة ولطف ، لا تفتأ
تسرى بين جوانحك ، تشيع فيها الطمأنينة والرضا ، وتبعث فيها
الأنس والمراح ! ...

إنك لتصنى وتصنى إلى هذه الأنعام الغذاب ، حاملة إليك
في رفيفها معاني كريمة ، ومثلاً رفيعة ، تجلو لك الإنسانية في صورة
وضيئة قد برئت من الزيف ، وتطهرت من الإثم ، وشاعت فيها
روح « الحب ، الخالص ... الحب في أرفع معانيه ، وأوسع
مرامييه ... الحب في مدلوله الشامل ، الذي يؤتى الحق والخير
على أنجل ما يكون الحق والخير ! ...

وإذن يستبين لك أن نفسك ليست كلها شراً محضاً ، ففي زواياها
تسكن عناصر طيبة كريمة ، فيها للإخاء الإنسانى مغنم عظيم ! ...
ذلك بعض ما يوافيك به مذبايعك الباطنى من شتى الإذاعات ،
فأحسن الإصغاء إلى كل ما يدور فى سريرتك ، ووازن بين ما يتهى
إلى سمعك واجتهد أن تستخلص من ذلك أسماً صالحة لحياتك ! ...

أما ذلك المورد الخارجى الذى يمدك بما تزدحم به أسواق
الحياة حولك من أصوات ، مما هو خارج عن كيانك الشخصى ،
فهو موود لا ينقطع له ضجيج ، يشغل ساعات صحوك ، بل إنه
يلزحم عليك ساعات خلواتك ، وفترات سباتك ! ...
وأبرز ما فى ذلك المورد الخارجى هو صوت أخيك
« الإنسان » ... وإن كان هذا فى الحق أتفه ما ينتهى إليك من
أصوات ! ...

أنت أدرى بما يصك الأذان من شقشقة اللسان ... فلا تضح
بك ناحية أخرى بمنجاة من ذلك « الأدمى » الثرثار ! ...
لتختار مجلسك فى حديقة خالية بما أفادت عليها الطبيعة من
طيات ، ولتجسّن هنالك « الإصغاء » ... فإنك تحت الأيالك
فى مهبط الأغاريد ! ...

ثم أنشودة سماوية الوحى يتغنى بها طائر صداح ، فيترسل
إليك لحنها صافياً نقياً علوى الروح ! ...

إنها ترنيمة واحدة ممدودة ، تتشكل أشكالاً مختلفة ، تارة
تعلو فى حدة وعنف ، وتارة تهبط فى خفة ولطف ، فكأنها تحمل
إليك شكولاً من المشاعر والنزعات ، فيها الوجد وفيها اللفف ،
فيها الهيام وفيها الحنين ، وفيها الثورة وفيها الاهتياج ، فيها العتاب

وفيها السماح ... كل ذلك في لحن مستمر سل موصول ، يزينه توافق
وانسجام ! ...

وأنت تعجب لهذا الكائن الصغير ، الذي تنطوى حناياه الضئيل
على هذا الكون الفيّاح ، من العواطف والإحساسات ...
تالله لتكسين من وقتك ما تنفقه في الإصغاء إلى هذا الشدو الرفيع .
ولعمري إنك لو أجد في صوت الحيوان الأعجم ، على اختلاف
أنواعه ودرجاته ، صورة صادقة للتعبير الصحيح عن الوجدان ،
التعبير الفطري الذي لا تشوبه البرقشة : برقشة الصنعة والتعمل ،
برقشة العقل والمنطق ... فهو تعبير من القلب مصدره وإلى القلب
مورده ، لا واسطة ولا حجاب .

وهناك ذلك العالم الذي نعهده لا حياة فيه ، عالم الجماد ...
ما أجدره بأن ترهف له السمع ، وتوالت إليه الإصغاء ...
ليس بجماد ما ظننته بجماد ...

فإنه ليزخر بالحس وينبض بالحياة ، ولكنه حس غين
ما نعهد وحيوية ليست لها مظاهر حيا لنا الدنيا ...
لهذا الجماد نصيب من الحياة في جرورها الأصيل ، ومعناها
الوسيع ... فما الجماد إلا كائنات عظيمة في صميمها قبسة الحيوية ،
ومنها تتجسم عوالم ودفنيسيات ! ...

أما نأح لك يوما أن تصفى إلى كائن من هذه الجمادات ، وأن
يتأدى إليك ما له من وحي وتعبير ؟ ...

أما كانت لك وقفة على شاطئ البحر ، تتملى أمواجه ، وهى
تصطفق ، مشركا فى ذلك التملى بصرك وسمعك ، مازجا فيه بين
فن التشوف وفن الإصغاء ؟ ...

هبك مائلا على الشاطئ ساعة غيوب الشمس ، وقد انبسطت
على مد الأفق تلك الغلالة الأرجوانية اللامعة ، تثير فى نفسك
رواقد المشاعر ، وتحجى بين جنديك هوامد العواطف ! ...

هبك مائلا هنالك فى تلك الساعة الساحرة ، وأنت مأخوذ
تتطلع ، صامت تتسمع ، أفلا تحس خشوع نفسك ، وتضاؤل
شخصك ، حيال هذه القوى الرائعة ، حين تفتسخ آية النهار لتبدأ
آية الليل ؟ ...

ألق بسمعك إلى هذه الأمواج التى تتدفق وتتدفع ، حتى تبلغ
جدار الشاطئ ، متكسرة عليه ، متفانية فيه ... ألا تستبين فى ذلك
الموج ، وفى إيقاعه الراتب المتواصل ، لحنا موسيقيا محكم الوضع ،
لا نشوز فيه ولا اختلال ، يتجلى منه الفن فى روحه الأصيل ؟ ...
إنه ليروعك من ذلك الموج الدافق إصرار ودهوب ، فى
مصالوة وغلاب ، حتى ينتهى به الأمر إلى تفكك وانحلال ، فكأنه

يمثل لك حياة الإنسان على ظهر هذه الأرض ، حين يستبد به
التكالب والتغالب ، وهو دائب مصرّ ، حتى يطويه شاطئ الفناء ١ .
شبيهة تلك الأمواج ، في رحلتها من الأفاصى ، وتهالكها عند
الشاطئ ، بتلك الأسراب من الطيور الجوّابة ، في هجرتها من
مواطنها زرافات ، وتهاقها في مطارح الغربة تقتنصها الضباك ١ ...
ولربما برزت إلى البحر ، ضائق الصدر ، فتاهت نظرتك في
أكنافه الشاسعة ، وراعتك جوانبه وقد ترامت بمنة ويسرة ، حتى
التقت بالأفق في فضاء بعيد جدّ بعيد ... فلا تلبث أن تجد نفسك
قد انفكت من عقّالها ، واستخفها طرب ومراح ، خلقت بك في
الأفاق تجوب أرجاءها في حرية وانطلاق ١ ...
في هذه اللحظة الساحرة ؛ لحظة التحرر والتطّاق ، تعلو أناشيد
البحر مصافحة سمعك ، قائلة لك :

حطّم عن نفسك الأغلال الثقّال ، واخلص بروحك من
قيودها الصعاب ، واسرح في ملكوت الله الواسع العريض ، فما
خلقت إلا لكي تكون حرّ النفس ، طليق الروح ١ ...
ولعلك إن صافيت البحر في جاستك إليه ، فأنس إليك ،
وطاب له السمر معك ، تجلى لك محدثا بارعا لا ينفد لحيثه فيض ،
فهو يفضى إليك بما وعاه صدره من أحداث الأيام ، وأسرار

«اللآلئى ، تالياً عليك صفحات من حياة البشرية فى مآسيها الفاجعة ،
وأجسادها الرائعة .. وما تعاقب عليها من هزيمة أو انتصار ، ومن
نهضة أو اضمحلال ...»

«وما أوفر حظك من المتعة إن خصك البحر من أحاديثه بتلك
الأساطير النظريفة الساحرة ، قصص لك ما تحويه البحار من عوالم
خفية غامضة ... عوالم تشمخ فيها قصور ، وتدور فيها عجائب من
شئون وتصاريق ، وتنساب فى جنباتها فائزات الحور من بنات
الجن ...»

ذلك كله بعض ما يوافيك به الإصغاء إلى البحر إن أصغيت
إليه ...

ولن تكون أقل من المتعة حظاً لو أصغيت كذلك إلى عالم
آخر من تلك العوالم التى لا تعدها فى الأحياء ، أعنى عالم الهواء ...
يتربص الهواء إليك نسيماً هفواً رخياً الخفقات ، فتسمعه
يناجيك بالحنان الحب والعطف والرحمة ، ولا يدعك إلا وقد
ملا قلبك من طمأنينة وبشر ، وأراك الدنيا روحاً وريحاناً
«وجنة نعيم ...»

وحينما يتقلب ريحاً صريراً عانية ، فيزف ويعصف ، كأنه يلقى
عليك قولة الشر والقسوة والبغضاء ، مثيراً بين جوانحك الرهبة

والذعر ، فلا تلبث أن توى الدنيا كأنها تبعث عويالها في أثر الفواجع والنكبات ! ...

وقل مثل ذلك فيما شئت مما تخويه عوالم الجناد ... فإن لكل منها حديثاً شائقاً ، يحفل بالحكمة والروعة والجلال ! ...

أرأيت إلى الصمت بين الطلل الشاخص ، والرسم الدارس ؟ ... كيف هو إصغاء للتاريخ يبتك حديث الأمس القريب أو البعيد ، ويسترجع لك خوالي الحقب وغواير الأحداث ، فإذا أنت في خطافات من وقتك ، إزاء هذه الأطلال الشواخص والرسوم الدوارس ، تستجليها جديدة البنيان ، شاحخة الأركان ، متخذة أبهى زينة وزخرف ، أهلة بمن عمروها من الناس كأن لم يترحلوا عنها ، وكأن لم تلعب بها وبهم دائرة الأيام ! ...

أرأيت إلى الصمت في بيوت الله ، من معابد ومعاهد ، كيف هو إصغاء إلى هتافات سماوية من القدس الأعلى ، تندى بها نفسك القلقة الحيرى ، كما يندى ظامئ الزهر ، في مطالع الأسحار ، بما يتهادى عليه من قطرات الطل فتحس بروحك قد شملتها هزة من نشوة وانتعاش ، هي هزة الرضا والإيمان ! ...

أرأيت إلى الصمت ، في مدينة الصمت ، مدينة الموتى ، بين المضرائح والقبور ... كيف هو إصغاء لأروع ما تمنحنت عنه

فلسفة الأزل ، وحكمة الأبد ، من حقيقة خالدة تذوب حيالها
"أكذوبة الحياة ، وتتقاصر دونها طماعية النفس ، وينهار أمامها
جبروت الكائن الحي ، حيثما كان ؟ ...
فاصمت ما وسعك أن تصمت ، ولكن لا يكن صمتك ركناً
وغملة ، بل إصغاء واعياً يذكرك أوفر الجدوى ...
اصمت ما وسعك أن تصمت ، فإن لم تغد من صمتك نفعاً ،
فإنك لا تجني منه شراً ، فما الصمت على أية حال إلا راحة للحي ،
وما الموت إلا صمت شامل ، يتكفل للحي الراحة الكبرى ...

آمَنْتُ بِالْحَرْبِ!...

العالم اليوم قلق مستوفز ، يعاني ألواناً من الهلع والفرح ..
لا يكاد يطمح السكينة والقرار ، فهو من عيشه في حالة شاذة كأنه
بركان حبيس ، يفور ويمور ، ولكنه لا يثور ! ...

هذا البركان الجياش تتواصل زلازله ، فيزعزع النفوس ،
ويرجف القلوب ، وينزع من الحياة صفاءها ، ويكسر الدنيا صبغة
الليل البهيم ! ...

إنه الخوف من الانفجار ، وهو خوف دائم غير مقطوع
ولا ممنوع ، فلا الانفجار يقع ، ولا الزلازل تهدأ ! ...

مثل لعينيك امرأ يخطو على أرض آينة ، تميد به يمنة ويسرة ..
فهو أبداً يترنح لا يتمالك ، يكاد يسقط فيستجمع . ولا يزال على
حاله ، ما إن يخطو خطوة إلا أسلمه اضطرابه إلى اضطراب .

كذلك مجتمعنا الحاضر في شرق وغرب ! ...

صراع مرير بين المبادئ وأوضاع الحكم ، وتنافس عنيف

فيما بينها على أن تفرض سلطانها في الأرض ، ومن وراء هذه المبادئ والأوضاع أصحابها ينشدون لأنفسهم بسط النفوذ ! ... ومن عجب أن هؤلاء الدعاة إلى مختلف المبادئ والأوضاع ، لا يختلفون فيما يتخذون لأبواقهم من أقوال ، فالفاظ الديمقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية ؛ — يتجاذب أطرافها أولئك الذين يتنافرون فيما يدعون إليه من مبادئ وأوضاع .

ومن ثم اختلط الأمر على جمهرة الناس ، فأصبحوا في فكر مبيل ، ورأى مقسم ، يضمنون بشقتهم أن يركنوا بها إلى مبدأ أو وضع من تلك الأوضاع والمبادئ ، ويشفقون أن يكون ما حسبه عدلاً وحقاً ، هو الظلم البين ، والباطل الصراح ! ...

ولعل لا أغلو إذا قلت إن الجوهر الأصيل لتلك المبادئ والأوضاع لم يعد واضحاً للعيون ؛ إذ توارت أشعته وراء الحجب المتكاثفة من غيوم الدعايات بين معارضة وتأيد ، فلقد سخرت لهذه الدعايات قوى المنطق والبيان ، وجندت لها فنون التأثير والإغراء ! ...

إن الذكي الفطن اليوم يرى لزوماً عليه أن يتهم ذكاهه ، وفطنته إزاء ما يقرأ وما يسمع ، مستريباً بهذا وذاك ، لا يلقى قيادة لحجة وإن سطعت كعمود الصبح ، ولا يؤمن لقول وإن بلغ من نفسه

كل مبلغ ، وسينتهى به الحال على هذا المنوال إلى أن ينكر ما له من عقل ، أو بالحرى يشور عليه عقله فينكره فإذا هو مخبول ...! دونك كلمة « السلام » الغراء ... تلك التي يتفنن الساسة ورواد الرأي العالمى العام فى الاعتزاز بها والحرص عليها ، فهم جميعاً يتبنونها ويولونها العطف السابغ والتكريم البالغ . كل مبدأ من المبادئ يهتف بالسلام ويزعمه ، وكل وضع أو ضاع الحكم يدعى أنه يدعمه ، وكل دولة تنازع غيرها فيه ، وتزاحمها عليه ، والسلام بين مختلف الدول حائر مضطرب يصيبه الدوار من فرط المزاحمة والنزاع ...!

لقد صار هذا السلام المسكين بين جهات الدول : « كرة قدم » ، تتخاطفها الرماة ركلا وقذفاً ، وما من دولة استطاعت حتى الآن أن تصيب الهدف ، وأن تدخل السلام فى مرمىها ، وإنما الدول كلها فى الميدان معه ، يدور بها وتدور به ، وسيفضى الأمر حتماً إلى أن تقع الدول جميعاً ومعه « كرة السلام » صرعى فى الميدان ...!

كان من أثر ذلك الصراع الدولى الظاهر والمستور أن انطوت القلوب على الضغائن والأحقاد ، وذهبت الثقة فى التفاهم والتعامل ،

موقوفات الحيلة والتوجس ، فإذا كل دولة ترى في الأخرى
عدواً يتربص بها الدوائر ، فإن ابتسمت دولة لأختها لم تكن
تبتسماتها إلا مجاملة لحظة ، أو بريق خدعة ، تستدنى بها الفرصة ؛
التي تضرب الضربة القاضية ... فهي ابتسامة أشبه شيء بالتكشير
عن الأنياب للاقتراس ...

كيف تدوم هذه الحال ...؟

أيحيا العالم على توفز وارتقاب ...؟

أليس لهذا البركان الفوار أن يهدأ زلزاله ، أو أن تتفجر منه

الحلم ...؟

إلى سلم نحن صائرون ...؟ أم إلى حرب نساق ...؟

أما الحرب فإنها لواقعة ... ما في ذلك ريب ، وما من ذلك

مناص . وقد يستأخر وقوعها حيناً يطول أو يقصر ، ولكنها

كقيام الساعة لا بد آتية ...

الحرب لا يمنع حدوثها إلا لأن تكون معجزة ، فتعالج المشكلات

الدولية بروح التفاهم على أساس من العدالة والحق ، بيد أن

المعجزات أندر شيء في الوجود ، وانتظار المعجزة ضرب من

الأيأس ، وما بنا من صبر ولا جلد ، فقد نهكت منا الأعصاب .

ومضات الصدور ، وبلغت الروح الحلقوم ، فلو قعدنا نناجي المعجزة

كما يناجى العاشق طيف الحبيب الهاجر ، لما استجابت لنا إلا وقد
عدونا أشلاء فاقدة الحراك ! ...

من خير الإنسانية أن يسعى من ييدهم أمر هذه الأرض الشغوب
إلى إشعال نار الحرب ، فلو لم يكن في إشعال نارها إلا قطع الشك
باليقين ؛ - لكنني بذلك فضلاً ونعمة ، ففي اليقين راحة ، وفيه تبصرة .
لمن يعمل . حتى يتعرف غايته ، ويمضى إلى هدفه ، لا يظل على حاله .
في ظلمة حالكة يحبط خبط العشواء .

ليس في إشعال نار الحرب جريمة ، فما الحرب إلا عمل جرىء ،
فيه للبشرية المعذبة دواء وشفاء ، وما الحرب إلا دجراحة ، خطيرة .
للعليل الذى ألح عليه السقم ، واستعصت به العلة ، فإن أجريت له
الجراحة على خطرها نهض بعدها يدب على الأرض باسم الثغر ،
عريض الأمل ! ...

الحرب العالمية في هذا العصر الذى نقاسى فيه القلق والاضطراب ،
شأنها كشأن الثورة في أمة استشرق فيها الفساد ، وتغلغل الانحلال ،
وتقاصر ولائها عن تدارك الأمر وتلافيه ، فانبعاث الثورة .
لتقويض هذا البنيان المستهدم واجب عظيم ! ...

الثورات - وإن بدت في صورة مفاجئة - ليست إلا لونا
من الأحداث الطبيعية التى لا غرابة فيها ولا شذوذ ، فما أقرب .

شبهها بالثمرة تسقط على رأس النائم في ظل شجرة ، فهو يهب من رقدته قد أزعجته الصدمة ؛ إذ لم يكن من أمرها على ترقب ، ولكنه لا يلبث حين يتلمس الثمرة أن يجدها قد استوفت حظها من النضج ، وما سقطت إلا لأنها ناضجة ، وإنها إذن ثمرة طيبة فيها غذاء ... وما أرى الحرب إلا موشكة أن تقع ، فهي ثمرة قاربت النضج ، وإذا أهمل الساسة العالميون اقتطافها ، وأبوا أن يمدوا أيديهم إليها لينزعوها من بين الغصون ، فإنها واقعة حتما على الروس ، توقظها من الخفلة الساذجة أو التغافل المقصود ...

لا تقل : بثست الحرب ؛ فإننا في حال من الحرب أدهى وأمر ...

مثلنا فيما نحن فيه كمثل الذي نضا ثيابه عنه ، ووقف قبالة البحر ، يبغي أن يستحم فيه ، واليوم عاصف . ولكنه ظل على الشاطئ . يرقب الموج المنسدف ، ولا يلقى إليه يده ، خشية أن يفرق . وثيابه عن كثر منه ، لا يمد إليها يده ، فيستر بها جسده فلا هو بقادر أن يتقدم ولا هو بقادر أن يتأخر : الريح العاتية تزعزع كيانه ، وتثير فيه انتفاضاً وتشعيرة ، وتملأ سمعه بالدوى ، ورذاذ الموج يتراعى إليه شديد الوقع ؛ كأنه القذائف أو السهام ... العالم اليوم عريان على شاطئ البحر ، أو شاطئ الحرب ! ...

الزحازح تتناوشه ، والشظايا تتساقط عليه ، وهو في موقفه مقشعر
مقروور كأنه محموم ! ...

ماذا في الحرب يخشاه العاملون على خير الإنسانية ؟ ...
هذه الحرب أتون عجيب لا يباريه شيء في سرعة الإنضاج ،
مفسران ما تنضج الحرب مختلف الآراء والأفكار ، وسرعان ما تعجل
بالمخترعات والمبتكرات ! ...

ما أبطأ التطور الاجتماعي في عهود السلام ! ... وما أعجله في
عهود الحروب والثورات ! ...

أليس في السرعة والتعجل اقتصاد للزمن ، تفتقر إليه الإنسانية
في سعيها الحديث إلى المثل العليا والسكال المنشود ؟ ...

تدبر مليا ما كسبه العالم من تطور في الاجتماع والاقتصاد ،
وفي التربية والتعليم ، وفي الآداب والفنون ، وفي الجراحة والتطبيب ،
خلال نصف القرن الماضي ، ألم يكن ذلك الكسب الكبير وليد
هاتين الحزبين العالميتين ، في نطاق تلك الأعوام الخمسين ؟ ...

لا مشاحة في أن الحرب موقد عبقرى لإنضاج الجديد من
الآراء والأنظمة ، وإنما كذلك غربال سحري لا تنتخال القديم
مقومات الأمن وما لها من عادات وتقاليد ، فما كان منها غير صالح
تذهبت به الريح ! ...

أما المخترعات والمبتكرات في ميدان الصناعة ، وبخاصة ما يتصل
بالأسلحة الحربية وما لها من ذخيرة وعتاد ، فإنها — ولا أزيدك
علما — تنمو وتغزى في زمن الحرب ، كما تزدهر الرياحين في إبان
الربيع ، ثم تغدو هذه المخترعات والمبتكرات ميراثا طبيعياً تنتفع
به الحضارة من بعد في عهود السلام ! ...

الحرب حكم عرفي ، وقضاء عسكري ، لا يعرف التسوية
والمهاملة ، ولا يأبه للمجادلة والمماحكة ، فهو لا يلبث حين ترفع
إليه الخصومة أن يقضى فيها بقول فصل ، فطابع الحرب هو ذلك
الطابع النفاذ من الحزم والجسم ، وفيه منافع للناس .

لنكن الحرب محنة ، فإن المحنة يعدها المرء امتحاناً له ، ويحمد
لها ما تفيد من تجربة وعظمة ، والحرب كذلك امتحان للشعوب ! ...
من يتلقى الضربات بصدر قوى ، ثم ينهض ليتابع سيره ،
هو الذى يكتسب حق الحياة ، ومن تصرعه الأزمات والشدائد
يخلو مكانه فى الزحام ، وتتخطاه الأقدام .
مالنا وللحرب نحذرنا ؟ ...

ألم يصبح للنصر والهزيمة مدلول عصرى جديد ؟ ... ربما
خرج المغلوب عليه عزة الانتصار ؛ إذ يتعظ بهزيمة ، فتستدير
بصيرته ، ولا يعتم أن يشحذ همته ليستعيد مكانه أرفع مما كان .

دور بما خرج الغالب وفيه ذلة الانتحار : إذ يستنزف الغلب
خفته وعزيمته ، ولا يجد فيما كسبه إلا سراياً لأماء فيه ، فيشكشك
عواره ، ويرجع بخسران مبين ! ...

هذه الحرب توقف الأمم من سباتها راضية أو كارهة ، فهي
تلب الظهور بالسياط ، فيدب النشاط في الأوصال ، وتملأ الحيوية
ما بين الجوانح ! ...

لإنها خروج بالإنسانية من حظيرتها التي تدور فيها ولا تفتأ
تدور ، وتجديد لجهازها الذي علاه الصدا حتى تعطل ، فإذا الإنسانية
تشق لها منفذاً إلى الأمام ! ...

وإذا كانت الإنسانية — واأسفاه — لا تبلغ ذلك إلا بالدم
المستفوك ، تؤديه ضريبة الكسب الجديد ، فتلك سنة الكون
ذلك للبشر ، وحكمة الأزل إلى الأبد :
على قدر الأخذ يكون العطاء ! ...

تطهّر ، تغيّر! ...

أليس عجباً أن نرى هذا الجمع الوافر من الموظفين والقائمين
بالمشؤون العامة بين كبير وصغير ، يتناولهم في العهد الجديد منجل
التطهير؟ ...

أوليس يزداد العجب إذ نرى من بين هؤلاء كثيراً ، كانت
تستشرف لهم الأعين ، وتهفو القلوب ، لما يستمتعون به في الناس
من حظوة مغبوبة ، ومكان مرموق؟ ...

أما وذلك ما كشفت الأحداث عنه الغطاء ، فليقل من يقول
إن الفساد في هذه البلاد قد استشرى واستفحل ، وإن الداء قد أعزل
وتغلغل ، فاستباح مختلف المرافق ، وتنقل في شتى المناطق ، حتى
لم يستعصم دونه مرفق مقدس ، ولم تمتنع عليه منطقة حرام! ...
ولئن كانت حقيقة الأمر كاتدل عليها ظواهره ، إن الخطب لفادح ،
وإن الرزية لتجل العزاء ، وإنه لاسيل إلى الإصلاح ولارجاء! ...
أحقاً؟ ...

كلا ، وربك ! ...

في قليل من التدبر ما يجلو عن النفس غشاوة اليأس ! ...
هذا المظهر السيئ الذي يبدو في الناس ، كثر عددهم أو قل ،
لا يستمد الضوء كله من طبع فاسد وشر متأصل ، وإنما هي عوامل
البيئة أوحى وألهمت ، وملابس العهد أغرت وأوعزت ، والبيئة
تتحكم ، والملابس تدفع ، والنفس تغرها ألوان الملذات والمتع ،
وتتخدعها فرص الكسب والاعتنام ، فتتساق إليها ما وجدت طريقاً
يأمن سالكة من خوف أو يسلم من ملام ! ...

أعجوبة الأعاجيب — فيما أظلمته السماء — هذه النفس البشرية
فهي مستودع المفارقات والأضداد ، وهي للخير والشر كليهما ولود
وإن قواها وملكاتنا لتظل حبيسة غافية ، يجهلها صاحبها أو يكاد ،
ولا يعرفها له صاحب أو عشير ؛ فن تلك القوى والملكات ما يستيقظ
في أناة ومهل ، فينمو نموه الطبيعي طوراً بعد طور ، ومنها ما ينبعث
من أغواره بغتة كأنه الحمم ينفجر بها بركان ، وذلك كله إنما يجري
وفق البيئات وطوع الملابس . فالنفوس خيرة حيث يكون الخير
موفرة دوافعه ، وهي شريرة حيث يتوهج الشر حولها ، يثير فيها
طوايا الأهواء والنزوات ! ...

مسكين هذا الإنسان ! ...

لقد شاءت له إرادة الله أن يكون مزاجاً طريفاً من هاتين
القوتين المتنازعتين : قوة الخسیر وقوة الشر ، ولا تتحقق لذلك
المخلوق إنسانيته إلا إذا كان قادراً بطبعه على أن يكون خيراً شريراً
في آن . فما الخير والشر إلا عاملان طبيعيان خلقا معه ، وسكنا
فيه ، ودارجاء في أطوار حياته ، فهما يتعاورانه لا ينفكان عنه ،
وهما مصطلحان عليه ما عاش ! ...

تحدث إلينا نفر من مؤرخي الثورة الفرنسية ، فذكروا فيما
ذكروا أن لفيّاً من أصنى النساء قلوباً ، وأودعن طباعاً ، وأكثرهن
إشفاقاً ، مالبن بين عشية وضحاها أن انقلبن — في أتون الثورة
الدامية — نمرات ضارية ، يُزعمن على الجماهير ، ويؤججن المعارك ،
ويتقدمن صفوف الهجوم ، ويحملن المعاول والحراب ، فيجرين
— بأيديهن الناعمة البضة — أنهار الدم المسفوك ! ...

لقد كنت فيهن من قبل روح القساوة ، وانقمعت شهوة
الفك ، ولكنها بقيت في قرارات النفوس تحت أثقال جسام ،
فلما انزاحت الأثقال ، وأتيح لهذه النزعات أن تتنفس ، لم تملك
إلا أن تخرج في ضراوة وشموس ، لكي تصاول في عتو
وجبروت ! ...

وعكس هذه الظاهرة نلسمه في فئة من تورطوا حيناً في مزالقي

الخطايا والآثام ، ثم انقلبوا إلى بيئة — غير يثنتهم الأولى —
تسودها الظلمات والندوة ، فاستقاموا على الطريق ، وأصبحوا
من أخلاقهم وسلوكهم على هدى ورشاد ، بل لعلهم صاروا
مضرب الأمثال ، في المدالة والفضيلة والإسراع إلى
الخيرات ! ...

وطالما قص علينا ثقافة الرواة أنباء أناس كانوا يحيون الحياة
الدارجة ، لا يعرف لهم قرناؤهم وعشراؤهم مميزة ظاهرة ،
ولا يذكرون لهم طابعا يختصون به ، فإذا هم تصادفهم في طريق
العيش أحداث عابرة ، فساهى إلا أن تثير بين جنوبهم قوة من
الإيمان خارقة ، فزاهم متحشين غلاة ، حتى لتبدو فيهم من القديسين
مشابه ، فهم يروعونك بالعجب العجيب ، في نوبات الفيضانية
الصوفية التي تساورهم أين حين وحين ؛ إذ تتجلى على أجسادهم
ندوب من جراح دامية ، ولا يكاد الوعي يعاودهم حتى تتزايد
الندوب وتندمل الجراح ! ...

ودونك العباقره ... لأنهم لمدينون بتفوقهم وتخرجهم لما
أحاط بهم من بيئة وما تاح لهم من ملابسات ، أكثر مما هم
مدينون بذلك لشعلتهم المقدسة ، التي كانت لهم هبة من
السما ! ... فهذه الشعلة المقدسة تمكث مستخفية في النفس ،

حظائفة لا تحس لها من وهج ، فإن لقيت ما يثير وقدما شبت نارها
تتضرم ، ولو سارت بها الحياة في طريقها المألوف ، لكانت عسيّة
أن تحبو وتحمّد ، لا ينتفع بها أحد ! ...

مرجع الأمر في انبثاق معظم القوى النافعة أو الضارة إلى
خوافز البيئة ومؤثرات الحياة للملابسة ، فما الخير والشر في كل امرئ
إلا وليد التجاوب في مزدهم الناس ! ...

فإذا كنا نراع الآن بما يكشفه البحث والتقصى ، من كثرة
عدد المفسدين من أسناد العهد الماضى ، ومن طغيان الشر في تلك
الأيام الخالية ، فلنطمئن بأن ذلك كله في حقيقته وجوهزه لا يدعو
إلى تشاؤم ولا يبعث على يأس ! ...

ولعل كثيراً من أولئك الذين كانوا صرعى البيئة الغالبة ،
وضحايا الملابس الدافعة ، لا يعز عليهم أن يتطهروا ويتجددوا ،
وأن يكونوا أعواناً للحق والفضيلة والعدل ، وأن البيئة الجديدة
في طهرها ونقاها وشريف سعيها لخليقة أن تكبت فيهم نوازع
الشر ، فإذا هي تضمر وتضوى ، تاركة مكانها نزعات أخرى
من الخير والإصلاح ، تنمو بين جنوبهم فتهدى إلى الأمة أطيب
الثمرات ! ...

لا ريب أن هذا العهد الجديد له على النفوس سلطان عظيم ،

فهو يرد فاسدها إلى الصلاح ، وهو يكبح فيها ما كان من جماح ؛
فلنستقبل نهضتنا البعيدة المرمى ، بما يجب لنا من بعد النظر ،
وسعة الأفق ؛ فنفسح مجال العمل لكل من يبغى العمل في إخلاص ،
حتى نظفر بكل ذى حيوية وثابة ، ونشاط مشرأ ...

علينا أن نتخل مالدينا من العناصر ، وأنحسبها فاسدة لا يرجى
منها خير ؛ فإن حاجتنا إلى استخدام القوى والغزائم والكفايات
لا تقل على حاجتنا إلى فضيلة الجهر بالتشيع للحق ، والمناصرة
للعدك ...

الآن وقد أخذ السيل العارم يتخذ مظهر الجرى الرقيق ، ومضى
يشق طريقه ليروى الأرض الموات ، علينا أن نؤلف بين القلوب ،
وأن نوثق بين المواطنين رباط التآخي ، ونشيع بين صفوفهم روح
الوثام ، فإن النهضة الحاضرة مثالية الأهداف خيرة الأغراض ،
تنشد المصلحة العامة ، وتعمل للغد القريب والبعيد ، وإن مجتمعاً
يتولى قيادته الهائون بهذه المثل العالية في بناء الأمم ، هو مجتمع
جدير أن ينعم بإصلاح وارف الظلال ، بإصلاح يباركه الله ،
ويدعوه الأطنان المخلصون

كيف هزمتُ عدوِّي الأول؟...

سمعت امرأ يقول :

لو كنت أملك صحتي ، و صفاء ذهني ، و طمأنينة الحياة من حولي
لأستطعت أن أقوم بأعمال جسام ، و أكتب لي صفحة حافلة
بآيات النجاح ! ...

لبثت أفكر في هذا القول ، فبدأ لي أنه منطق معكوس ، وكان
جديراً بصاحبه أن يقول :

لو كان لي عمل أو من به ، و أقبل عليه ، لأبلغني هذا العمل
ما أنشده من موفور الصحة ، و صفاء الذهن ، و طمأنينة الحياة ! ...
لقد أملى عليّ هذا التصويب خبرة خاصة ، هي الزبدة من
جربة العمر ! ...

أصبحت معتقداً أن الإيمان بعمل ما ، و الشغف به ، هو خط
الدفاع الذي يحمي المرء من مكاره اليأس و القلق و التهيّب ، وهو
الينبوع الذي ينض على النفس مشاعر الفوز و كسب الحياة ! ...

كيف يحين عن الحياة من يعتقد أن له فيها عملا يضطلع به ،
وأن له فيها ثمرة يرتقب أن يحين قطافها يوما بعد يوم ؟ ...
لا غرو أن يرفع العمل من معنوية الإنسان ، وأن يحجب إليه
العيش ، وأن يدفعه في سبيله إلى المجادلة والصراع . فتقوى فيه
روح المغامرة ، ويمضى به الطمح إلى بعيد الآفاق ...
كنت أجتاز عالم السابح ، فإذا المرض يدهمني ، وإذا هو ثقل
الوطأة يهددني ، وقد استلان جانبي واستضعفني ، حتى بلغت
عصر الشباب ، وأنا أكاد أستئثس من الحياة ، وأحس دنو
النهاية القاضية ! ...

ولكنني في هذه الفترة وجدتني أنساق إلى نوع من العمل ،
أدين له الآن بكياني كله ، ذلك هو الأدب ... تعلقت نفسي بأن
أبلغ منه مأربا ، وأرمى فيه إلى هدف ... إذ كانت « مصر » لذلك
العهد في مستقبل نهضة ، وبواكير ثورة ، والوعى القومى يستشرف
لطابع وطني خاص متميز في مرافق العيش ، فاستهوانى أن أسعى
مع الساعين إلى تقويم الطابع المصرى للأدب في إطار من القصص
الفنى ، فجرى هذا العمل تيارا في دمي ، وصار جوهر حياتي ،
يملك على أمري كله ! ...

وعلى الرغم من أن المرض لم يتخل عن صحبتي ، فهأنذا

أستكمل الستين من عمري ، وما زلت حياً أرزق ، بفضل ذلك العمل الذى حماني من المزيمة والانهيار ، بل إنه كان يعمر قلبي بالأمل ، ويفرغ على نفسى الثقة ، وينضّر أمام عيني وجه الحياة ، فأنظر إلى المرض ، نظرة الاستهانة والاستخفاف ! ...

بالعمل وحده استطعت أيضاً أن أواجه الأحداث التى تتمخض عنها الليالى والأيام ، فلست أنسى أنه لم يكن لى عزاء فى نكبتى بفقد وحيدى ، منذ سنوات عشر ، إلا أن ألقى بنفسى فى غمار عملى ، حتى أتممت روايتين مطولتين فى قصير من الوقت ... وخرجت من فورة هذه المحنة ، أحمد للعمل ما حماني به من لوعة الحزن وحسرة الفقدان .

وإنى لأزجى أنقال الحياة ، وهموم العيش ، بتلك الساعات التى أندمج أثناءها فى عملى ، فأصدر عنه كأنى أصدر عن مستحيم يفيض على جسدى النشاط والحيوية والانشراح ! ...

لقد غدا العمل عندى لونا من العبادة ، فأنا أعتقده ، وأعتده من شعائر الدين ! ...

ما أشبه العمل بالصلاة ! ...

فما الصلاة إلا تأمل فى صميم الوجود ، وترفع عن توافه الدنيا وصغائر العيش . وما العمل إلا استغراق فى أعماق الحقائق ،

وعزوف عن التفاهة والفراغ ١ ...

بالصلاة تتخلص النفس من شوائبها ، فتتناسى إلى آفاق
علوية صافية ، وبالعمل تتجرد النفس للأهداف المرسومة ،
وتتحرر من تلك النوازع والنزوات التي تجر إلى الشرور
والآثام ١ ...

إذا كانت الصلاة مظهر الطاعة لله ، بها يستمد الإنسان على
طهر الأرض قبساً من نور السماء ، فالعمل هو جوهر الطاعة
والتعبد والاندماج بين الخالق والمخلوق ١ ...

مقأخذ الإنسان فيما بين يديه من عمل ، فهو يؤدي الجانب
الذي فرضه الله عليه من رسالته إلى سائر الناس ، رسالة العمل ،
رسالة العمران على اختلاف مدلولاته ومعانيه .

أنا في إقبالى على عملى الذى أتوجه إليه أحس بأنى أصلى لله ،
وأودى ما كتبه على ، وكأن يد الله تدفع بى ، وتبارك جهدى ،
وتحفى بالرعاية والرضوان ١ ...

وأصارع بأنى فى بعض الأحيان قد أضيق بعملى ، وأحسبني
منه فى رهق ، وأكاد أم بأن أثور عليه ، ولكن سرعان ما أجدنى
قد سكنت ثورتى ، وذهب عني الضيق ، واحتملت للعمل ما يحشمنى
من جهد ، وأم بأن أنحنى على أوراقى أستغفرها مما أهديت لها من

غضاضة وإعراض ؛ إذ يثمل لى عدوى الأول الذى هزمته فى
مراحل حياتى السافرة ، ذلك الشبح المرهوب ، شبح الفراغ ،
شبح الإفقار من الأهداف ، شبح الجذب الذى يطبع الحياة بطابع
التفاهة والعقم . فأرأى قد هشتت لعملى وحننت إليه ، وارتضىته
ظهيراً لى فى الظفر بمعنى الحياة وجوهر العيش ، فأجلس إلى
مكتبى ، آخذاً بقللى ، منكباً على أوراقى ، أستمريه نشوة
الاتصاف ... !

نبوءة في عالم الفن: كتاب المستقبل

إنها كلمة أقولها على ثقة و يقين ، وإنى لأراها بظهر الغيب ،
ولكأنى بها حقيقة ماثلة في قريب من الأيام أو بعيد ! ...
هى نبوءة لا أنصيدها من آفاق الوهم ، ولكنى أستوحىها من
التأمل والتدبر ، طوعا لما تسلم إليه المقدمات الصادقة من نتائج
محتومة ، فهى آتية لا ريب فيها ولا مرأى ! ...
هذه النبوءة ، أو تلك الكلمة ، أن «السينما» هى الميدان الأكبر
لثقافة المستقبل ، وهى المظهر الأعلى لحضارة الغد ! ...
أرأيت إلى «السينما» اليوم كيف تتطور آلاتها . وتتفنن فى
التسجيل والعرض والإخراج ، مذلة ما يعترضها من عقبات
وعراقيل ؟ ... أرأيت إليها كيف بلغت شأواً رفيعاً فى التعبير عن
مختلف ألوان الفنون ؟ ... ألسنت تجددها لا تفتأ تحاول تقريب
ضروب الثقافات فى مجال العلم والكشف والاختراع ؟ ...
ألا يكون هذا خائفاً بأن يلقى فى روعنا أن «السينما» ماضية

في هذا الطريق ، حتى تكون الدعامة التي يقوم عليها صرح العلم والفن ، وأن نشاطها سيظل متغلغلا في شتى مناحي الثقافة ، حتى تصبح الأداة الأولى في تلقين المعارف وتكوين الملكات وتقويم الأذواق ؟ ...

« السينا » ، موثقة أن نهيمن على معاهد العلوم والفنون ، حتى لا يستطيع التعليم أن يؤدي مهمته إلا معوّلاً عليها في إبلاغ رسالته إلى العقول والأفهام ! ...

سوف يتلقى الطالب غداً درسه في بهو العرض ، فيتابع دراسته بعينه وأذنيه ، رانياً إلى ذلك اللوح الفضي المائل أمامه ، تراءى عليه المشاهد ، في أسلوب تربوي جديد ، يسير عصره المرموق ... وأن يتزايل أو يتضامل « المعلم الحي » الذي عرفناه ، وكذلك « الكتاب المطبوع » الذي ألفناه ، ولا أقل من أن يتزحزح كلاهما عن مقامه المعهود ، ولا يبقى له أثره المباشر في مجال التربية والتعليم ، وربما اتخذ المعلم أو الكتاب مكاناً آخر تالياً ، يتولى فيه مهمة التعقيب والشرح إذا احتاج الأمر إلى شرح وتعقيب ! ...

سنشهد انقلاباً خطيراً في ميدان التربية العملية على تباين المناهج والمراتب والدرجات ، فإذا هو يستغرق مراحل التعليم من دقيقها في « الروضة » إلى جليلها في « الجامعة » ، ... وأعني بهذا الانقلاب

الخطير عنصر التجيب والتشويق ، فلن يغدو الدرس من بعد اليوم
مر الطعم كره المذاق ، تضيق به أنفاس الطلاب ، ولكنه سيكون
فيه لأنفسهم متاع ، وفيه لأرواحهم إناس ، فيقبلون عليه في شغف .
هذا درس من دروس التاريخ ، يتناول مثلاً عصر «خوفو»
ومن إليه من بناء «الأهرام» ، لا يقرؤه الطلاب سطوراً في صفحة
كتاب ، ولا يسمعون حديثاً من فم معلم ، بل يشهدونه صوراً لذلك
العهد ، فيها تسميخ لأحداثه ، وتمثيل لأشخاصه ، وفيها كذلك
تعبير عن بيئته ومقوماته . فيرون التاريخ ماثلاً لأعينهم يعيد نفسه ،
ويسمعون حوار أبطاله ، كأنهم يقاسمونهم أسباب العيش ...

وذلك درس من دروس الجغرافية في شأن « النيل » ، فسيشهد
الطلاب ذلك النهر العظيم يتحدث إليهم عن كيانه ، ويروى لهم
قصة حياته ، ويظلمهم على ما مر به من أطوار ، وما تعاقب على
ضفافه من حضارات ، وما كان له من أقدار شقاء أو نعيم .

وهل يعيا اللوح النضى بأن يصوغ للطلاب من مواد الجبر
والهندسة والطبيعة رموزاً وأحاجى تروق وتشوق ، في أسلوب
رائع قوامه الصورة والحوار ؟ ...

فأما تعليم اللغات ، فحدث عن « السينا » في قدرتها على تفسير
ذلك وتقريبه ... إنها تصحب الطلاب في سياحة طريفة إلى البلد

الذى هو موطن اللغة الأصيل ، فتخلطهم بأهله ، وتسمعهم من
أحاديثهم ومحاوراتهم ما يكتسبون به قواعد اللغة ولهجتها ،
وطرائق استعمالها فى أصالة ودقة ، غير مرهقين أنفسهم بالحفظ
والاستدكار ، ولا راصدين أكبر وقتهم لإداء ما تلزمهم به المدرسة
من فروض وواجبات ! ...

ولسوف يكون « للسينا » فى دراسة الطب شأن أى شأن ...
فهذه الجراحات فى شتى أنواعها وتفاصيلها ودقائقها يشرحها
اللوح الفضى فى ترغيب ، وتلك الأمراض على تباين أسبابها
وأعراضها تتجلى فى أجساد المرضى حالا . بعد حال ، وذلك تأثير
العقاقير يتوضح طورا بعد طور ، وهذا علم الجرائم يتكشف
للأنظار فى مغامرات لا تقل طرافة عن مغامرات « تيرون باور »
و « ريتا هيوث » وأمثالهما فيما نعرف لهم من أروع
الأفلام ! ...

وما أجعل أن يتوافد طلاب الحقوق ، ليشهدوا على اللوح
الفضى قاعات المحاكم ، تتوارد عليها القضايا ، وتتجاوب فى أرجائها
المرافعات ، فلا تلبث الحقائق والمعلومات أن تستقر فى أذهان
الطلاب على نحو تتوافر له أسباب التسلية والإمتاع ! ...
ولك أن تقيس على هذه الأمثلة ما يزاوله المتعلمون فى

المعاهد والمدارس من علوم وفنون ! ...
ستنقلب « القاعة المدرسية » ، بهوا للعرض ، وسيستحيل
« الكتاب المدرسي » فلما سينمائياً للمشاهدة ! ...
وإذا كان المعلم يتفرد بإعداد « الكتاب » ، فإن الفلم السينمائي
المدرسي سيشارك في إعداد المعلم وكاتب « السيناريو » والممثل
والمصور والموسيقى والمخرج ، فيتعاونون على تأليف ذلك الكتاب
الفني في صورته الجديدة ،
المعلم يقدم المادة العلمية ، وكاتب « السيناريو » يصوغها قصة ،
والمخرج يرتب مانقضييه من مناظر ، والممثل يعبر عنها في حركات
وكلمات ، والموسيقى والمصور يزفان القصة بما يلائمها من الصور
والألوان والأنغام ! ...
وفي ظل تلك الألفة بين القائمين على تأليف « كتاب المستقبل »
يتوارى ظل المؤلف الفرد ، والمعلم الفرد ، كما يتوارى سائر
المقومات الفردية التي كانت تسيطر على العمل الواحد ، وبذلك
يصبح التأليف عملاً جماعياً لا بد أن تتساند فيه ألوان شتى من
الكفايات والمهارات ! ...
ومتى تحول الكتاب القديم « فلما سينمائياً » فلزام أن يتحول
كذلك أسلوب المعالجة في التأليف ، إذ يخضع أتم الخضوع لما

عملية الفلم من مطالب فنية بحتة ... فهذا الفلم قوامه الصورة والحركة والإشارة والإيحاء ، ومن شرائطه الاقتضاب في الحوار ، ففي تتابع المرنثات غمية عن الإسهاب في الوصف ، وفي إظهار النتائج إرشاد لا يقتصر إلى الإخبار والتعريف ...

ولن يكون « الكتاب الفلمي » - أو « الكتاب الفلم » - وفقاً على المعاهد ودور التثقيف ، فإن أسلوبه الجديد في معالجة التأليف ، ومنحاه الشائق الكئيل بالتسلية والزفيه ، جدير أن يمد له إقبال الناس أجمعين ، وليس بمستنكر على الأجيال القادمة أن يكون في كل بيت ركن للعرض السينمائي ، وأن يتوافر للأسرة من الأفلام ما ينقل إليها دقائق المعارف والعلوم ...

وبديه أن « كتاب المستقبل » في صورته الفلمية لن يكون مقصوراً على الكتاب العلمي المدرسي ، ولكنه سيكون مظهراً شاملاً لألوان النشاط الثقافي في مختلف نواحيه من أدب وفن . ولأذن يشهد العالم انقلاباً عجيباً في وسائل التمييز عن الخواج والأفكار والعواطف ، فكل ما هو متصل بهذه الوسائل في أسلوبها المؤلف ، لابد أن تنسخ « السينما » آيته ، وأن تتخذ أسلوباً جديداً بأدواتها الفنية المستحدثة ...

ستكون القصيدة من الشعر مثله للأعين في مناظر تتعاون

ففيها الألوان والألحان والصور ، لكي تعبر عن خيال الشاعر في مظهر أحاد ! ...

ولن يكون القاص يومئذ إلا « مورد فكرة » يلقى بها رموس موضوعات ، وربما أستعين به في صوغ « السيناريو » ، ونسق الحوار ! ...

ومهما يكن من أمر ، فإن البيان الكتابي - في بلاغته الراهنة - سينكشف في « فلم المستقبل » وسيحل محله البيان السينمائي في التعبير عن المشاعر بالإضاءة والألوان والألحان .

ما حاجة « الفلم » إلى تلك الأوصاف المبسوطة في القصص المكتوب ، وإن هذا « الفلم » ليستطيع في لمحات خواطف - من الصور والشخصيات - أن يستكمل كل ما يقتضيه المقام من تفصيل وبيان ؟ ...

وما حاجة « الفلم » إلى تلك التحليلات النفسية التي يحاول بها المؤلف أن يكشف عن شخصيات قصته ، على حين أن « الفلم » يريك جليئة الأمر في مناظر وأحداث ؟ ...

لاريب في أن الحيل السينمائية ، وتطور آلاتها الفنية ، وافتنان وسائل الإخراج فيها ، سيكون لها أبلغ الأثر في اتخاذ أسلوب من التعبير فيه الجودة والطرافة والابداع ! ...

وما أظن الصحافة إلا أنها — فى جميع مقوماتها من أخبار ومقالات واستطلاعات — ستتحول هى الأخرى أفلاماً تذيعها دور الإذاعة بواسطة « التليفزيون » ... ١

فسيعرف مواطن الغد أبناء الدنيا وقت حدوثها لحظة بعد لحظة ينقلها إليه هذا « التليفزيون » بواسطة جهاز الاستقبال ، فى داره أو فى الميادين العامة ، وأكاد أقول بواسطة لعبة سحرية ، يحملها معه فى جيبه ، أو يلفها حول معصمه ، فلا يلبث أن يشهد زيارة إبان حدوثها ، أو مؤتمراً حين انعقاده ، أو حرباً أثناء اشتعالها إن كان فى الغد حروب ... ١

هذا « التليفزيون السينمائى » هو الذى أحسبه يرث الصحافة فى مظهرها الحاضر ، فتقوم عليه صحافة الغد ، والصحنى الناجح يومئذ لن ينجح ببراعة قلبه ، فستدول دولة القلم ، ولكن ينجح بما يحمل من الآلة اللاقطة ، وبما يكون له من فطنة والمعية فى فن التصوير والتسجيل ... ١

وكذلك تتحول أبواب الصحف المتعارفة ، فإذا هى على اللوح النفضى موضوعات عمادها الصورة والإضاءة والموسيقى المعبرة ، وكذلك الشأن فى « المقال » ، فيكون « فكرة » يضطلع كاتب « السيناريو » والمخرج معا بإبرازها على نحو يضمن لها سرعة الإفهام والتأثير ... ١

ولن تشذ الألحان الموسيقية عن هذا النطاق المضروب ، فستكون هي الأخرى في طاعة اللوح الفضى المتألق ! ... وقد شرعت « السينما » في عهدنا الحاضر تجلو بعض « السيمفونيات » في معرض من المشاهد والأضواء ، فأناحت مزاجاً من المتعة والبهجة للأنظار والأسماع على السواء ، وكان لها في النفوس روعة وبلاغ ، فهاظنك بما ينتظر للفن السينمائي من رقي ، وما يرتقب لآلاته من تطور ؟ ... ألا يبعثك هذا على أن تمثل القطعة الموسيقية وقد أخرجتها « السينما » الجديدة في مظهر شائق قوامه التنوع والافتنان . والراجع عندي أن المصور في المستقبل لن تكون مهمته تصوير ألواح الخاصة ، بقدر ما تكون مهمته أن يعين على إخراج صورة للطبيعة المنظورة أو المشاهد الحية في وضع فني جديد . فميكون شأن المصور كشأن المؤلف في اختفاء شخصيته المستقلة ، فلا ينفرد بالفضل في عمل « اللوح النملى » ولكن يشارك الزميلة — التي تعمل متكاملة متكافئة — على إبراز الروح الفنى الحى ، ذلك الذى هو أقرب شهماً إلى تلك الألواح التي نشهدها أحياناً في الحفلات ، أقصد Tableaux Vwanto في هذه الألواح ينسق الفنان مشاهد صامتة من الأشخاص في أوضاع ثابتة ، فتبدو كأنها ألواح فنية ، وإنها لكذلك في الحق لا تعوزها الحياة ! ...

أما المأسوف عليه - في هذا الانقلاب السنائي العارم - فهو المسرح المؤلف ، فإنه لمقضى عليه لا محالة ، وليس عجبا أن يلقي هذا المصير وهو منذ اليوم تهكة الشيخوخة . حتى لأقول إنه يعالج النزع ، ولا ينجيه من غمراته ما نصطنعه له من محاولات . نريد بها استبقاءه حيناً من الدهر ...

وغاية القول أنى موقن بأن « السينما » وريديها « التليفزيون » هما اللذان يؤول إليهما ذلك التراث الإنساني الضخم من علم وأدب وفن ، وهما اللذان ينتهى إليهما الإشراف التام على ثقافة الغد . علمية كانت أو أدبية أو فنية . فيوجهانها في معنى جديد ، يوائم متطلبات الحياة في تطورها الدائب لموصول ما بقيت حياة ...

اعترافى

اعترافى الذى يراد منى أن أجرى به القلم الساعة ، هو فى حقيقة أمره أن أفتح ذلك الباب المعلق الصدى ، بعد أن أوصدته دهرانى أوجه الناس .

إنه باب تلك الذار الغتية التى أختزن فيها عصارة حياتى حلوة أو مريرة ، وأدعها ليد الأحداث وتصاريك الزمن ، تتعاقب عليها بأشتات المصائر والأقدار .

وليس لاعترافي معنى إلا أن أدعو الناس على اختلافهم ، — أقربين وأبعدين — إلى أن يرتادوا هذه الدار ، وأن يطوفوا بما فيها من أهواء وحجرات ، فيتذوقوا من تلك العصارة الحية ما طاب لهم أن يتذوقوا ، ليس عليهم من سبيل

وقد يجد بعض الناس طعم العصارة التى يتذوقونها لذع النار ، بيد أنهم يتجرعونها فى صبر واحتمال ، قريرة أعينهم بأنهم قد استجلوا شيئاً مستوراً عنهم ، لم يكن بالمستباح

وإن الناس ليصادفهم في تلك الحجرات والأبهاء ما يرتاحون
إليه تارة ، وما يستنكرونه تارة ، ولكنهم جميعاً يصدرون عن
الدار ، في غير ندم على ما أنفقوا من وقت ، ولا ضجر بما قضوا
من زيارة وطواف ... !

ومن أين لهم الندم والضجر ، وقد أثلجوا بهذا الصنيع صدورهم ،
التي تتقد فيها جذوة التطلع والتعرف والاستشراق ؟ ... !
والناس إذا تطلعوا إلى الاعترافات تطلع اللاهف المشغوف
واستروحوا منها نفحة الأنس والرضا ، فإن مرد ذلك إلى رغبة
هؤلاء الناس في أن يجدوا من عيوب المعترف ونقائصه ، ما يملأ
نفوسهم طمأنينة ، وما يخفف عنهم ثقل ما يشعرون به من النقائص
والعيوب ... !

ولربما تصيد الناس ما يكشفه المعترف من أمر نفسه ، فإذا هم
يحسمون خطره ، حامدين إلى تهويل وترويع واستنكار ، يهدفون
بذلك إلى التصغير من آثامهم بجانب ذلك الإثم العظيم ، حتى يكونوا
بالقياس إلى ذلك الخطيئة المعترف أطهاراً أبرياء ... !

ما من قارىء فرغ من تصفح اعترافات غيره ، إلا وقد كبرت
نفسه في عينه ، وواتاه زهو واعتداد ، فطوى صفحة المعترف
وهو يقبل يده ظهراً لبطن ، حامداً الله على أنه عافاه عما ابتلى به

كثيراً من خلقه ، ولو أنصف ذلك المتفرج المزهو لحمد الله على أن جوارحه لا تنطق بما قارف هو من جرأثر وآثام جسام ...
على أن المعترف نفسه إنما يكشف عن دخيلته ، ويجلو ما استتر من أمره ، تحدوه على ذلك الرغبة في التخلص من التبعة فيما كان منه ، والتماس المعاذير له فيما أحاط به من ملايسات ، حتى يكون ذلك سبيلاً إلى أن تنزاح عن كاهله عقوبة الخطيئة ، وجواز الإثم ، وفي هذا الصدد يتناقل الناس تلك الكلمة المأثورة :

« من أقر بذنبه ، غفر له ربه »

والاعتراف على هذا الأساس ، يحمل معنى الإقلاع عن الشر والكف عن المآثم ، ويعد طلبية الاستقامة في السلوك ، والنزوع إلى مكارم الأخلاق ، وذلك هو جوهر التوبة الخالصة النصوح ، تلك التوبة التي تفتح لها في السماء أبواب القبول .
والموازين الأخلاقية تحمد في الاعتراف أنه دليل شجاعة النفس ، وقوة الإرادة ، وبرهان الرجوع إلى الحق ، لا التماذى في الباطل ولا الإصرار عليه... وأنه كذلك محاسبة المرء نفسه بنفسه على ما كان منها ، قبل أن يرميها أحداً بالتهمة ، ويأخذها بالعقاب ...
والحق أن للاعتراف باعثاً نفسياً سيكولوجياً ، فوق تلك البواعث التي ترجع إلى نظام المجتمع ، أو إلى وحى الدين ، أو إلى معايير الأخلاق .

فى النفس البشرية خاصة التطلع إلى أسرار الناس ، وفيها
كذلك خاصة الإفضاء إلى الناس بما تنطوى عليه من سر ! ...
أنت مشغوف بأن تتعرف وتستجلى ، وأنت كذلك مشغوف
بأن تبث غيرك ذات نفسك ، فى غير إرغام ولا إلزام ! ...
المعترف تؤوده خطاياها ، فهو بالانطواء عليها ضائق
مكروب ! ...

السر فى حنايا الصدر حشرة قارضة ، فإذا بقيت الحشرة
رهينة الحبس ، ولم تجد لها من متنفس ، عمدت إلى الصدر تأكله ،
مشت إلى القلب تعيث فيه فلا تدعه إلا حطاما ! ...
إذا بسط المرء اعترافه ، فكأنما هو يبيع لتلك الحشرة القارضة
أن تبارح صدره طليقة تسمى ، واجدة طعامها الطيب فى صدور
ذوى التطفل والفضول ، أولئك الذين تلهب قلوبهم كلفا
بالكشف عن كوامن الأسرار وراء الأستار ! ...

ولو تدبرت كنهه المعترف ، لعلمت أنه ليس إلا إنساناً مثلك ،
تتقاذف به الأقدار كما تتقاذف بك ، استشعر منك أنك تتسور
جداره ، وتستشف أسرارها ، فأدلى إليك حبلاً تتعلق به ، وماهى
إلا أن استقبلك بزيف من الترحيب ، وأخذ بيدك موها إياك
أنه مطلقك على ذخائر داره ، وإذا هو مطوَّح بك فى أنفاق

وسراذيب ، لا تلبث أن نقاضها أن تنهال عليك ، ولا يلبث غبارها
أن يخنق منك الأنفاس ! ...

ويظل بك المعترف الخداع مترددا بين هذه المتاهات الخربة
الموحشة ، حتى تؤثر الفرار بيدك ظالماً ، مشجوج الرأس ،
محطوم الأنف ، كسير الفؤاد .

لا تذهبن بك الغفلة إلى أن المعترف يفتح لعينيك مغاليق
نفسه ، مريداً بذلك أن يطاعمك البهجة ، ويساقيك الأانس والمتاع ،
فما هو إلا ناثراً لنفسه ، غاضب لكرامته ، يدس في تلافيف
اعترافه سموم الحقد والانتقام ! ...

إنه صريع خطيئة ، وإنه ليظهرك على خطيئته جهرة ، وإنه
ليدرك منك أنك في خفيّة نفسك تجد برد الراحة ولذة الطمأنينة
فيما يعترف به ، فيأبى إلا أن يشوب متعتك ، ويفسد عليك
أمنيتك ، فيسوق إليك اعترافاته البغيضة ، يشكّث فيها التزييف
والتمويه ، وتتعدد فيها المداورات والأخاديع ! ...
ولعلك سائلي :

أى سم ينقشه المعترف في طي اعترافه ؟ ... وعلى أى نحو
يكون ثأره وانتقامه ؟ ...

فاعلم — عافاك الله — أن المعترف يوقن اليقين كله أنك

لست أهون منه خطأ ، ولا أظهر منه ذيلاً ، وأنتك لست إلا مثله : جعبة آثام وشرور ، تنسدل عليها حلة من زينة وزخرف ، فهذا المعترف بما يجلو عليك من طوايا خطاياها ، إنما يبتعث في سريرتك رواسب آثامك ، ويهضم النصار فيما همد من ماضيك ، فإذا أنت محوط بأغوال سيئاتك ، تلهيك سياطها الحامية ... وذلك هو اللباب فيما يبغيه المعترف لك ، تشفياً منك ونقمة !...

والآن وقد قصصت عليك د اعترافى ، فى حقيقة الاعتراف ، أرجو أن أكون قد بسطته فى خلوص يسلم به من شوائب المعترفين . فإذا أقررتنى على ذلك ، فما إخال إلا أنك تعفينى فى أن أفضى إليك باعترافات تسرى فيها الشوائب من كل جانب !...

الغادة الطائرة... رحلة صيف!

يمضى بك القطار من « جنيف » في الساعة السابعة من الصباح ،
فلا يشرف بك على « فلز » إلا في مثل هذه الساعة من المساء ...
وإذن فانت في هذه الرحلة تستنفذ نهارك الطويل كله ، على حين
أن الطائرة إذا نهضت بك من « القاهرة » في الساعة السابعة مساء ،
وصلت بك إلى « جنيف » في الساعة السادسة من صباح غدك ...
يبد أن تلك الساعات المديدة التي تقضيها في القطار بين « جنيف »
و « فلز » لاتروعك ، ولاتبعث في نفسك ضيقاً ولا ملالة ، فالسفر
في القطارات السويسرية مأنوس ، تهش له النفوس ! ...

أنت في رحلة طيبة ، تحتويك مركبة نظيفة ، وقد اطمأن
بك الجلوس على مقعدٍ وثير ، عيناك تشهدان مناظر ممتعة في
كل لحظة تمر بك ، والهواء دونك رخاء لا غبار عليه ، والقطار
المجد في سيره لا ينفث حولك من الدخان ما يعكر صفو الأنفاس ،
وليس ثمة من ضوضاء ولا جلبة ، فهذه مثابة أمن وطمأنينة ،

لا شائبة فيها من قلق !...

الطريق بين « جنيف » و « فلز » شطران : الشطر الأول من « جنيف » إلى « بريج » ، تتوالى عليك أثناءه ربوع سويسرية مألوفة بين الوديان ؛ فهذه بساتين فياحة ، وكروم حالية ، إلى مراتع أبقار ، وغابات تتكاثف ، وأنهار تجري ... وهنالك المغاني التي تسمى « الشاليهات » متميزة بطابعها الخاص ... والشطر الآخر من الطريق بين « بريج » و « فلز » تقضى أكثره في القطار ، وأقله في حافلة من حافلات الضواحي ...

أما قطار « بريج » فإنه قطار صغير ، أعد لكي يحبوب شعاب الجبال ، فهو عجول إذا اطمأن به الطريق ، وقلبا يكون ، وهو رزين محاذر إذا رافقته المهاوى أو علت به المشارف ، فتراه يتراقى إلى الجبل ، ويدور حوله ، متشداً في خطوه ، لا عن خشية واحتراب ، بل عن ثقة واعتداد ، وكأنما هو يستأنى بك ؛ لكي يتيح لك أن تملأ عينيك من مجالى الطبيعة الرائعة حواليك ، فتكاد محس بأن هذا القطار ليس بآلة صماء وإنما هو رفيق كريم ييسر لك أسباب المتعة والإيناس !...

المرحلة بين « بريج » و « فلز » هي بيت القصيد في تلك الرحلة الشائقة ... إنك لتلزم نافذتك من القطار ، لتطل منها على الطريق ،

تستقبل الروائع من مشاهد الجبال ، وإنك لنذكك في جلستك إلى
نافذتك ، تنسى طعامك وشرابك ، بل تنسى أن تلتمس لجفنيك
الغفوة التي تعودت أن تلتمسها في أسفارك . فأنت هنا لا تبغى
بالتطلع بديلا ، بل تحشى أن تند عن عينك فائتة ، فتظل مسحور
العين بما ترى مهتاج النفس بما تتملى ...

أنا تجدك قد سموت على سفح الجبل ، وطورا تراك قد
انحدرت عنه ، وحينما تحس بأنك على صعيد الأرض تمضى في
طريق مستقيم ...

وربما ألقيت طريق السيارات تصحبك ، عن كذب منك ،
وسرعان ما يحتفى عنك ، كأنما قد غار في بطون الجبال ، وإذا هو
بعد حين يلوح لك ، على مبعدة ، وقد استظال والتوى ، ملتصعا
في وهج الضوء ، وأشباح السيارات تتخايل عليه منطلقة في جراءة
وافتحام ...

وثمة في قاع الوادى السحيق يترامى لك النهر ، كأنه سلك من
فضة يتألق ، وهو يعابثك ببريقه نائيا عنك ، دونه مهاو سحيفة ،
تخف بها مزالي الصخور ، وغابات تنشب أشجارها بأكتاف
الجبال ...

وبينا أنت مأخوذ لللب بما تشهد ، إذ تداعب سمعك موسوعة

موصولة تشدد وتتوضح ، وإذا هي خرير النهر ، دنا منك بعد نأى ،
وواصلك بعد جفوة ، وتخطى إليك العقبات جميعاً ، وغدا إلى
جانبك يحبك في إقبال وتودد ، ثم لا يفتأ يسائر قطارك الصغير ،
وهو ضاحك مهال ، على شفتيه رغو فائر وثاب ...

وإن النهر ليصافيك وتصافيه ، ويألفك وتألفه ، حتى ليشغلك
عن مشهد تلك الفنادق المعلقة غير بعيد من رموس الجبال ، وربما
حانت منك التفاتة حينئذ إلى « بحار الثلوج » المتحجرة بلونها
الزمردى المتوهج ، تزهو بها تلك المناطق القطبية الرفيعة ، فها هي
إلا أن تذكر صاحبك النهر ، فتدور بعينيك منقباً عنه ، وترهف
سمعك له ، تنصيد بعض حديثه ، غير وعك أنه قد توارى عنك في
ملاوى الجبال بلا وداع ، وكأنما عز عليه أن تستهويك « بحار
الثلوج » دونه ، وأن تصدك عنه ، فيأبى إلا أن يحرمك صحبتته التي
حدثها له في بعض الطريق .

ويتهادى بك القطار في سكينته ، متسرباً بك من نفق إلى نفق ،
وأنت فيما بين ذلك تطالعك ألوان شتى من الطبيعة الحية ، وترى
القطار وقد أخذ يعبر بين جبلين على قنطرة ضخمة عالية ، طبقاتها
مبنية بعضها فوق بعض ، ولا يكاد القطار يفرغ من عبور القنطرة
حتى تلمح السلك الغضبي قد التمع في بطن الوادي ، يبعث إليك

يتحية رقيقة ، وكأنه يقول لك : ط ب نفساً بي ، فإن مواسمك
بعد انقطاع .

وانتهى بنا القطار إلى محطة الوصول ، فغادرناه نؤم حافلة من
حافلات المناطق الجبلية تنص بالمسافرين ، أبلغتنا بعد حين مشارف
« فلز » ، فبدت لنا على مقربة ، تعتقها الغابات الكثة ، ومن
خلفها هامات الجبال تطل بوجه أرمم عليه شيوخ ...

ها هي ذى « فلز » ... غادة مشيقة حسناء ، تتجلى في لبوس
البحر ، وهي تقفز في الهواء قفزة جبارة ، ولأنها لتتسط ذراعها
وساقها ترمي بها إلى الوراء ، ناهدة الصدر ، مشرّبة العنق ، عالية
الرأس ، تستقبل مسرى الهواء ، ومطلع الضياء ، فتعب من
خضفوها رحيق الحيوية والإشراق ...

لكنها وهي متجلية على هذا الوضع ، معلقة بين السماء
والأرض ، تناجى ماء البحيرة للساجى ، وتزف نفسها إليه ، تريد
أن تلقى عنده جسدها البض ، ليتلقاها على صدره الدافئ الحنون ،
فإذا هما يستغرقان في سكرة من سكرات الأحلام ...

تلك هي الصورة التي تطالعك بها لافتات السياحة ، وتقدمها
لك الدشرات والبطاقات ، راضرة بها إلى « فلز » ... وما أصدق
من رمز لهذه المدينة الساحرة ، فما هي إلا غادة رائعة الفتنة ،

تتجلى فيها فورة الحيوية الدافقة وتسكن فيها متعة النفس الطلاقة
فى معرض طبيعى أنيس ، لا كلفة فيه ولا تصنع !...
أما وقد استقر بك المقام فى «فلز» ، فهل تراك قائماً بالجلوس
فى شرفة حجرتك ، ترمى بنظرك من حولك ، لتطالعك الجبال
والغابات ، ومن فوقها سماء صاحبة تماث صحوها سحائب رفاق؟...
هيئات لك أن تقنع بالركون إلى الشرفة ، وهذه الطبيعة البهيجة
أمامك ، تذكى شوقك ، وتلهب فضولك ، لاستقصاء تلك المفاتن
التي تنطوى عليها الغابات والأحراج ...

إنك لتنهض عجلان دافعاً بخطاك إلى الطريق ، فإذا الغابة
تحتويك ، فتضم حناياها عليك ... وأعنى بالغابة « فلز » نفسها ،
فما هي إلا غابة عظيمة ، أو مجتمع غابات متشابكة ، وما هذه
الفنادق والمغاني والأندية والخوانيت إلا أجزاء من تلك الغابة
الساحرة ، تحسبها نبتت مع زرعها ، ونمت مع أشجارها ، فهي منها
كما تكون الأعضاء فى جسد سوى ...!

تجوس خلال هذه الغابة أول ما تجوس ، فتحس لها بادئاً
بشيء من رهبة واستيحاش ، إذ ترى الأشجار تتزاحم ، فارعة
الغصون والآفانين ؛ كأنها تحجب عنك صفحة السماء ... ولكنك
لا تلبث بعد جولة قصيرة أن تذهب عنك الوحشة ، إذ تشهد

الطريق عامرة بالقصاد ، فى غدو ورواح ، على وجوههم سيماء
التفاؤل والبشر ، أولئك هم طلاب الدعة والجمام ، فزعوا إلى
« فلز » فى إجازاتهم لتفى عليهم متعة النفس وراحة البدن ؛ وهم
على ثقة أن المدينة ضمنية لهم بما رغبوا فيه ؛ فلتكن مثلهم طلقاً
مروحا ؛ تنعم بطيب الحياة ...

وفى أثناء تحوالك بين خائل « فلز » ، تسترعى نظرك كتل
من صخور الجبل عليها جهامة ، تراها قابضة هنا وهناك ، ناتئة
بين المروج الخضراء ، فتحاذر أن تدنو من هذه الصخور ، خشية
أن تنزعزع فى مكانها فتودى بك ... وإنك لتسأل أهل الذكر :
ما خطب تلك الكتل التى تقوم على مد الطريق ؟ ... فيجيبونك
بأنها أثر من آثار الماضى البعيد ، لى انهارت من حول المدينة
بعض جوانب الجبل ، فكانت كارثة دمرتها شر تدمير ...
ولما استعادت المدينة على الأيام حياتها ونماءها ، بقيت هذه
الصخور مكانها لا تنزحزح ، وكأنما هى سطور يخط بها القدر
تاريخ الكارثة على أرض ذلك البلد الصبور ...

وتسرع الخطأ ، محاولاً أن تنسى مآسى الطبيعة الفاجعة ،
مستقبلاً برئتلك لطائف الأنسام المضمخة بشذى الأزهار ، فتحس
بأن لك فى زهتك رقيقاً يؤنسك ، وما ذلك الرفيق إلا قرقر

لا تكاد نغيب عن سمعك حتى تعود إليه رنانة صافية ، ويستبين لك أنك تجوز في سيرك بين وقت ووقت بحياض ، صنعت من جذوع الشجر ، تتلقى ماءها من صناير لا ينقطع لها ورد ، وإن هذه الحياض لتظل زاخرة بمائها تبعث بما يفيض عنها إلى قنوات متعرجة ، وإن هذا الماء الفائض ليتسلل في أنحاء الغابة هادئاً رقيقاً خفياً كما تتسلل الأسرار من قلوب المحبين .

على هذه الحياض يتلاقى الظاء من رواد الغابة ، ليلوا صدام بما يفاض عليها من ماء فرات ، وحول هذه الحياض يتجمع الرفاق ، مفترشين العشب ، ليصيوا ما شاءوا أن يصيوا من طعام .

ويطيب لك أن تضرب في مناكب ذلك البلد ، تجوب طرقاته ، وتمر بجوائنته ، وتزور ما هنالك من فنادق ومشارب وأندية ... وتختار الجلوسك بعد طول الطواف مشرباً له شرفة مرتفعة في الميدان : قاب المدينة النابض ، فمن هذا الميدان تنشعب الطرق إلى مختلف النواحي والجهات . ومن التجوز أن أقول « الميدان » ، فإن رقعته لا تزيد على بهو من الأبهاء في قصور السراة الغابرين ، وإذا قلت إن هذا الميدان « قلب المدينة النابض » فإنما أعنى قلباً ساذجاً ، من قلوب العذارى ، أو قلوب الأطفال ...

وفي مجلسك من شرفة المشرب ، ترى تجاهك مبنى يضم مكتب البريد والبرق ، ومحطة الحافلات ، فهى التى توصلك إلى « فلز » ، ونعود بك منها ، وأما القطار فلا وجود له فى تلك المنطقة الساجية ... وهنا وهناك تشهد بعض حوائط الزينة والتصوير والفاكهة ! ...

وقد تسأل متعجباً قلقاً : أين المصرف ؟ ... إما بال نظرك لم يقع بعد على مبنى لهذا « الخطير العظيم » ، فتأخذ عينك وجهة صغيرة يحتجب زجاجها خلف ستارة من نسيج مخرم ، تحاول على استحياء أن تستخلص نفسها بما يزحمها من أبنية ، لتستعلن لك ، مرجبة بك ، فتقرأ على جبينها باللغة الألمانية ما يرد إليك طمأنينتك ... أنت هنا أيها المصرف المشهود ... أنت هنا يا صديقي قانع بهذا المشوى المتواضع الذى لا تزيد مساحته على حجرة بواب ... لقد ضنوا عليك أن تستقل بمبنى خاص ، فأشركوك فى مبنى واحد مع بائعة أدوات الزينة ، حتى إن المرء ليشتبه عليه أمرك ، فيحسبك مستودعا ، تخزن فيه البائعة ما فضل من السلع عن حاجة البيع ! ...

وبينا أنا فى ملتطم هذه الخواطر ، إذ قدمت نادلة المشرب تضع أمامى ما طلبته من شراب ، فسألتها عن المصرف وشأنه فى ذلك

البلد ، فذكرت لي فيما ذكرت - والابتسامة على محياها ترسم -
أنه لا يفتح لطلاب المال أبوابه - تقصد : بابه الصغير ! -
إلا أربعة أيام في الأسبوع ، بين الساعة الثالثة بعد الظهر والساعة
السادسة . فقلت لها في هدوء يخفى وراءه الدهشة :

يبدو أن المال ليس بذى شأن في « فلز » ! ...

فقلت وقد ضاءت ابتسامتها :

بل إن له شأنًا أي شأن ... ولكن مصرفنا كبلدتنا ... يعني
بكل المطالب ، على صغره وتواضعه ... هو صورة صادقة من
« فلز » ! ...

وزايلت المشرب ، فاقصد « بيت المال » العجيب ، فقد
نار بي فضولي إليه ، وطرقت بابه من فوري أستبدل ببعض
« النقود الأجنبية » فقوداً سويسرية ! ... فوجدتني حيال منضدة
أو ما يشبه المنضدة ، ومن وراءها موظف يهش لك ، ويرحب
بك ، ويجيبك في يسر إلى مطلبك . لا ترى ثمة أسواراً ونوافذ
عليها قضبان من حديد ونحاس ، ولا صفوفاً متراسة ينمسا هرج
ومرج ، يأخذ بعضها بخناق بعض ... لقد أصابت الغدالة في
تقوّلها :

إن المصرف صورة تمثل « فلز » أصدق تمثيل ، فيه ما فيها من

ورشاقة وهدوء ، ومن سداجة وتواضع ، ومن ترفع عن الضنعة
والزخرف !

وترجع إلى مجلسك من المشرب ، ترمى ببصرك من شرفته
الرفيعة ، لتفرج بما تشهد ، وأنت في ساعة الأصيل ، والجو
ما يرح دافئاً فيه أثارة من حرارة الشمس ، فلا غرو أن ترى رواد
« فلن » يذرعون الميدان في جيئة وذهوب ، وأكثرهم متخفون
من ثيابهم ، حتى تتخالطهم من رواد شواطئ الاستحمام ! ...

لا مبالغة في قولك إذا وصفت « فلن » بأنها بلد الغرى ،
ولكنه الغرى المذهب أو المحترق ، فإن السراويلات القصار
المنحسرة إلى السيقان ، هي الزي المألوف في ساعات الصحو
والدفء ، ومن فوق هذه السراويلات قصان طريفة الألوان
زاهية الأصباغ ، وليس في هذه القمصان ولا تلك السراويلات
معنى الكساء ، فإن ما تكشفان عنه ، أكثر مما تسترانه ، وما تمنان
عليه ، أخطر مما تسترانه !

كأنك في مجلسك من الشرفة الرفيعة ، وهذا الخلق يمر
تحت ناظريك ، تشهد حفلة من حفلات الغرض ، إلا أنه ليس
يعرض عسكري ، قوامه الطفوف المتراصّة التي تضرب
الأرض بخطواتها الزائبة الثقالة ، ولكنّه عرض لأطياف بشرية

خرجت تحتلى محاسن الطبيعة ، في مظهر كله بشاشة واطف
والتناس ...

أتراك تسأل عن الشرطى فى هذا البلد : أين يكون ؟ ...
مسيحز عليك أن تصادفه ، ولكنك ملاقيه بعد طول البحث
والتقصى ... ستجده أكثر ما تجده فى ساعات الأصيل من يوم
الأحد ، يوم نفسه ، ويوم الناس معه ، أنه قدم إلى الميدان ،
الليضبط الأمن ، وينظم حركة المرور ، ولكن الأمن فى غنية عن
أمره ونهيه ، وقافلة المرور تسير فى غير افتقار إلى هديه ، لأن كل
شئ فى « فلز » يجرى وفق منهج طبيعى لا كلفة فيه ولا تعقيد ،
منهج التعاون الصادق ، والبصيرة الصافية ! ...

إلا أن الشرطى مأمور بالهيمنة على الأمن ، وإن لم يكن ثمة
ما يخل بالأمن ، مكلف أن يشرف على حركة المرور ، وإن كان
المرور منظماً بدونه ، فهو يبدو وسط الميدان متبخرأ فى حلة
خضراء مزركشة بأنواع من الزينة والوشى ، يتلقى أفواج الناس
بوجه ريسان مورّد تنكسوه طلاقة ، يبادل النجىة من يبادل من السابلة ،
ويناقل بعضهم الحديث فى لهجة لا تخلو من عجب واختيال ... هو
على الرغم من أوسمته الزاهية وشاراته المقصبة ، وسيفه الصقيل ،
يشعر أنه مواطن كسائر المواطنين فى هذا البلد الأنيس ، فيطيه

واجب مقدس ، عليه أن ينهض به في أمانة وإخلاص !...
أترك تسأل عن الصيدلية في « فلز » ؟ ... سيدلونك على
مكانها بعد لآي . فإذا طرقت المسكان ، فدفعت إلى صاحبه تذكرة
الطبيب ، لم يعتم أن يردها عليك في ابتسام ، وهو يسوق اعتذاره
بقوله :

ليست هذه صيدلية يا سيدى ... هذا مخزن عطور
وعقاقير ! ...

— هل لك أن تدلنى على صيدلية في هذا البلد ؟ ...

— ليس في « فلز » صيدلية ...

وأنت فقد تكون من أفاء الله عليهم نعمة الصحة ، ولم تستوثق
صلتهم بالطب والدواء ، فلا تجد في هذا القول ما يثير عجبك ...
ولكن ما أحقنى أنا بأن أحرار وأدهش ، إذ أجد مدينة بأكملها
خلاء من صيدلية !... فأنا الذى أمضيت في هذه الدنيا أكثر من
نصف قرن ، أكاد أعيش بمنتجات هذه المتاجر الكريمة التى تلقب
بالصيدليات ، ولا أحيأ إلا وفق ما يرسمه لى الخطارييف العظام ،
الذين يلقبون بالأطباء ! ...

من حق إذن أن أعجب وأن أدهش حين أسمع صاحب مخزن
العطور والعقاقير يقول لى :

ليست « فلز » في حاجة إلى صيدليات ولا إلى أطباء ! ...

فأقول له مختلج الصوت :

وماذا يصنع المرضى هنا ؟ ...

فيأدرني بقوله :

ومن قال لك ياسيدى إن في هذا البلد مرضى ؟ ...

فأحذق فيه وقتاً أراجع قوله ، وماهى إلا أن أجدنى قد
طويت تذكرة الطبيب فى يدى ، وألقيت بها فى جيبى ، ثم التفت
وجه الطريق .

هذه « فلز » تقفر من الصيدليات ، وهى فى عرفنا نحن من
ضرورات الحياة ، على حين أن البلدة تعمر بمتاجر العطور وأدوات
التطريف ، وألوان الزينة ، كما تزخر بأبهاء الحلاقة والتجميل ، وتلك
فى عرفنا نحن من ترف العيش وكاليات الحياة ! ... ألا يبدو هذا
من عجائب المفارقات ؟ ... الضرورات يعدها الإنسان المتحضر
مما يستغنى عنه ، والكاليات تعد من اللزوميات التى ليس لأحد
عنها غناء ! ... أحقأ فى الأمر مفارقة أو تناقض ؟ ... لو أنك
أعملت الفكر ملياً لبان لك أن الإنسان — منذ كان — يضع
التجميل فى المقام الأول من حياته ، وإنه ليجد التزين والتطرية
غريزة تضارع فى سلطانها عملية غريزة الطعام والشراب والدواء ...

تلك حقيقة من حقائق الإنسان ، لا يرقى إليها الجحود والنيكران .
ولأنك وأنت في « فلز » ، تجوب نواحيها ، وتخالط أهلها ،
لتعجب لهذه الرطانة الغريبة التي يتفاهم بها الناس هنالك ، وستحاول
أن تسبر غور هذه الرطانة ، وأن تعزوها إلى إحدى اللغات
المعروفة ، مهتدياً بما ألفت أن تسمع في جولتك من مختلف
اللهجات ، ولكن فطنتك لا تسعفك بشيء تطمئن به ، وتسكن
إليه ، فلا تملك إلا أن تسأل أهل الذكر ، ليعينوك على حل هذا اللغز
العصى ، فتعلم من حديثهم أن بلدة « فلز » تتبع منطقة « الجريزون » ،
ولهذه المنطقة لغة خاصة تسمى « الرومانش » ، وهي فابعة من
اللاتينية ، ترفدها الألمانية والإيطالية . وقد كان القوم في سوائف
العهود لا يعدونها إلا لهجة ليست لها مقومات اللغة الحققة . ولكن
أهل تلك المنطقة أمدوا لغتهم بأسباب البقاء والنماء ، حتى برزت
وتفوقت وأصبحت لها دولة وسلطان ، فاعترفت بها الحكومة ،
وأضافتها إلى لغاتها الرسمية ، وكذلك احتلت « الرومانش » مكاناً
مكيناً بين اللغات الأصلية التي تتكلم بها كثرة الناس في « سويسرة » ،
وهي الألمانية والفرنسية والإيطالية .

أصاب « الرومانش » تلك الخطوة ، على الرغم من ضآلتها ،
وقلة الناطقين بها ، فهم لا يزيدون على خمسين ألف نسمة ، من

أربعة ملايين يعمرون الأرض السويسرية . والفضل في حظوة هذه اللغة مرده إلى أن أكثر من مائة وخمسين شاعراً وكاتباً نهضوا بأدب جديد حتى ، في تلك المنطقة المسماة « الجريزون » ، استنبتوه في أرضها ورووه بما يقطر من أندائها ، وأنشقوه طيب هوائها ، فلما وازدهر ، واجتذب إليه أنظار الإعجاب : إذ كان لتلك المنطقة مرآة مجلوة يستوحى روحها ، ويصور طابعها ، ويسجل لغة أهلها ، فإذا هي لغة تدين لها الدولة ، وتشق لها مكاناً بين الأصائل من اللغات ! ...

والآن وقد واليت جولانك في هذه البلدة ، حتى عرفت ما وعرفتك ، وأطالت مكوثك في شرفة المشرب حتى مللتها وملت ... ألا تشعر أن هاتفاً يهمس لك : حسبك مما حولك ، وأنشد جديداً مما تحمّل به أطراف البلدة من متع ومباهج .

وإذن فأنت ناهض من فورك ، فراجع إلى أهل الذكر . لينودوك بمعلومات طريفة ، ويمدوك بمجموعة من الكراسات والمصورات ، وإذا أنت أمام حشد من أسماء المنازل مخلف الألوان والشكول ، فتقبل على دراستها موازفاً بينها في جد واهتمام ، وما لمن يقع اختيارك على ما يلائمك ، حتى تمضي إلى طيئك قرير العين مشبوب الوجدان ! ...

لتكن فاتحة جولتك إلى منطقة البحيرات ، وإنما لبحيرات
ثلاث تربط بينها مسالك متعرجة تعبر الغابات ... هذه خطاك
تدفع بك نشيظا في الطريق الظليل إلى أولى البحيرات : « كوماسي »
أجمل مواطن الاستحمام في تلك البقعة ، فينتهي بك السير إلى
مبنى صغير ، حجرة واحدة ، هي محطة المصعد ، حيث يقبع
الناظر ، أو التذكري ، أو بعبارة أوضح : المهيمن على حركة
الصعود والهبوط ...

أنت لا ريب سائل : أي صعود وأي هبوط ؟ ... لا تعجب ،
فالبحيرة تهبط عن سطح البلدة مائة وخمسين من الأمتار . ليس
العجب أن يكون ثمة مصعد ، وإنما العجب أن تكون هذه البحيرة
غائرة في جوف الجبل ، وعلينا بالبحيرات أن تشق السفوح ،
أو تنسجم القمم ...

متى تركت حجرة الناظر ، واجهك المصعد على الفور ...
إنه علبة ، علبة لا أكثر ولا أقل ... علبة خضراء ناضرة ، كأنما
عكست عليها الطبيعة من حولها لونها الأخضر ، فسا في هذه البقعة
إلا الخضرة تواجهك أينما أرسلت الطرف . ولا تكاد العتبة
تحتويك حتى تحس بها نزاق هابطة ، وترفع بعرك ناظرا من
النافذة ، فإذا أنت حيال مشهد ساحر خلاب ... إن الغابة

الكشيفة التي تتوشج أشجارها في إضرار يسد دونك السيل..
لنتسامح اللحظة معك ، وأنت حبيس هذه العلبة الخضراء ، فتبوح
لك ببعض أسرارها اللطاف ... إنها لتزيح اللثام رويدا عن
وجه ريبتها الحسناء « كوماسى » ، فهذا المهوى الهابط بك يشوق
لك الغابة شقاً ، ويواعد بين أشجارها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ،
فتبدو لك فرجة تزداد اتساعاً كلما أوغلت بك العلبة في الغابة
إلى القرار ...

وأخيراً تنطلق من محبس العلبة ، فتجد قبالتك هذه الفاتنة
الساحرة ، « كوما » — أو كما يسمونها : « كوماسى » — وقد أبدت
لك دفعة واحدة كل روعتها ، فتقف ذاهلاً معاق الأنفاس ، لا تملك
إلا أن تطوف يصرك وتبدأ في خشوع وإكبار ، تتملى تلك
المفاتيح التي من الله بها على هذا المكان الفريد ...

قل غير متهيّب إن « كوماسى » إحدى العجائب النواذر في
سويسرة ، بل قل إنها إحدى العجائب المعدودة في هذا الكون
من أقصاه إلى أقصاه ...

إنك لتتمثل بحيرة كانت يوماً كسائر البحيرات تنشق عنها
هضبة جبلية عالية ، ولكن ساخ الجبل ، فانهوت البحيرة معه إلى
قرار سحيق ، ولبثت غائصة في مكانها مع الأيام . فاخضوضرت

«من حولها سفوح ، وأوراق حياها شجر ، فاستحالت البقعة
مفردوساً يبهز العميون !...»

ذلك ما يواتيك به الخيال في شأن تلك البحيرة ؛ وأنت تحديق
فيها بمجامع النظر ، محاولاً أن تستزيد مما حوت من آيات الحسن ؛
فتمضى في الطريق المرسوم ؛ طريق الزهرة لا طريق الاستحمام ،
مزمعاً أن تدور حول البحيرة دورة يتم بها تعرفك ؛ ويرتوى
فضولك ؛ وما هي إلا خطوات حتى تشعر بأنك قد حلت مكاناً
أوفر دفئاً من «فلز» نفسها ؛ وترى الأعشاب وألوان النباتات
تكسو البقعة ، وتتفشى في جوانبها ، حتى يتعذر عليك أن تبين
الأرض الصلبة تحت قدميك ! ...

وإنه ليشق عليك أن تجد للبحيرة شاطئاً رملياً كسائر
شواطئ الاستحمام ، فما هذه إلا بحيرة عذبة الماء ، على حفافها
بساط من سندس ، عليه يستلقي المستحمون في حرية يبيحها جو
المكان ... وهنا وهناك صخور مبهوثة كأنها الأرائك لمن يطيب
له الجلوس ! ...

فإن تابعت خطواتك ، ألفت الطريق صاعداً بك ، كأنه يريد
أن يسلمك إلى قلب الغابة ، ورأيت الفراشات يبعثاً وسوداً ، قد
هبت من أعشاشها تترافض حولك ، وتسايرك في زهتك ؛ كأنها

معك دليل يهديك السبيل ! ...

وكلما أوغلت في الطريق ، ازداد شعورك بالدفع والطفء
النسيم ، واستنشيت في هذا الجو نفحة من نفحات المناطق الاستوائية ،
تذكرك بجو الشرق في سجوه ورخاوته ، فلو كان هناك نخيل يزهو
بقوامه الفارع ، وهامته السماء ، وسعفه الهفاف ، لما أعوزك
في هذه المنطقة شيء من معالم الشرق الحبيب ! ...

أمران يروعانك في هذه البحيرة : زرقعة مشبعة تسطع وتتألق ،
وصفحة هادئة مستقرة كأنها صدر الحليم ... وإن البحيرة لتستمد
زرقعتها من صبغة السماء فوقها ، ومن استقرار البحيرة في هذا العرق
تحتضنها شواهد الجبال ... على أن أطراف البحيرة تبدو بالغة
الخضرة ؛ كأنها حليت بحاشية من الزمرد ، وما هي إلا انعكاس
الضوء من تلك الأشجار المتكاثفة على الشاطئ ، أما هدوء البحيرة ،
وجمال صفحتها المصقولة ، فإن الناظر إلى المستحمين فيها يحسب
أنهم إنما يسبحون على حرير ناعم يشقون ديباجته شقاً ، ولكن
سرعان ما تتلاقى الخيوط ، وتتلاحم الفتوق ، فتعود الصفحة رتقاء
ماساء تلتمع في فتنة وبهاء ! ...

وتسوقك الخطأ على مهل ، فتلقى بنظرك تملئ ... هذه فرجة
فسيحة بين الأشجار تتيح لك الإلمام بالبحيرة مكتملة الروعة .

هتري منها مرآة مستديرة أو شبه مستديرة ، مصقولة الحية ، زرقاء الصبغة ، مخضرة الحراشي ، تحيط بها أغصان الشجر ، ومن خلال الأغصان تبص عيون المغاني والفنادق والمشارب من بعيد ، كأنها تحتلس النظر إلى تلك المرأة السحرية الصافية ، تحاول أن ترى نفسها فيها ... ومن فوق ذلك كله جبال عاتية تشمخ ، يتوج هاماتها فاصعات الثلوج ! ...

وينتهي بك السير إلى جزيرة « الليدو » ... وما أحرأها أن تسمى « الجزيرة العذراء » ... جزيرة صغيرة تقوم وسط البحيرة في جرة ، لا تبالي من شيء ... لأنها متوحدة مستوحشة ، منفجورة ... أجزيرة هي حقاً تتصل أرضها بقرار النهر ، أم بجمع أشجار تكاثرت فكانت دغلاً طافياً على متن الماء ؟ ... ما أشبهها بالمعقل المنيع ، فإن نباتها ليتعانق ويتماسك ، حتى لا يدع لمقتحم مسرياً إليه ، ليتعرف ما يحويه ... وإنك لترى المستحمين زرافات وفرادى سايحين أو متمطين الزوارق الخفاف ، يظوفون حول هذا الدغل متصايحين ، ولكنهم لا يجسرون أن يقاربوه ، فهم يقنعون منه بهذا الطواف ، كأنه مارد جبار ، يستشعرون له مزاجاً من الرهبة والتقديس ! ...

وتستأنف سيرك ، حتى توشك أن تستكمل حول البحيرة

دورتك ، فإذا أنت أمام عائمة من الخشب ، تتخذ شكل المغانى
السويسرية الأصلية التى تسمى « الشاليهات » ، تلك المغانى الريفية
بطابعها القديم ... هى مثابة المستحمين ، يدخلونها كاسين ،
ويبرحونها أشباه عراة ، وهم يتقافزون إلى الماء فى معاينة
ومراح ...

وعن كتب من هذه العائمة الطريفة مشرب رشيق أرجوانى
الصبغة ، فالجرة تغشى مظلاته ومقاعد وموانئه جميعاً ، والناس
يؤمونه بين مستحم ومستروح ، فإذا استويت على كرسيك هنالك
تقضى بعض الوقت ، وطالب لك أن تطارح نادلة المشرب بعض
الحديث ، فسألتها عن البحيرتين الأخرين :

أين تكونان ؟ ...

أجابتك من ثغري يتسم :

إن كنت من عشاق الطبيعة المستوحشة ، فلا عليك أن
تقصد إلى هاتين البحيرتين ، فى زيارتهما متعة لمن يبتغى الكشف
عن المجهول ، وإنها لرياضة مستحبة ، وإن شأبتها متاع
ومشقات ... أما إن كنت ممن يأنسون بصحبة المستحمين على
الشاطئ المتحضر ، فلا تبرح دكرامسى ، لأنك إن تلقى فى
بحيرتيك الآخرين منتحماً أى مستحم ١ ... والاكثرون من

زوار « فلز » يقصدون « كوماسى » لينشدوا متعة الاستحمام بين
مفاتيح الطبيعة ، فهم يقضون يومهم هنا فى قصف وهو ومعايشة بين
الماء والخضرة ...

ولا تكاد النادلة تفرغ من حديثها ، حتى تشعر بأن عينيك قد
انبعثتا تحاولان كشف الحجب عن طوايا الغابة المتجمعة ، وكأنك
تناجى نفسك بقولك :

هذه النفس البشرية أمرها عجب ... لقد تزهّد فى القصف
واللهو والمعايشة ، وتتوق إلى الجهود المضنية فى المجهول المستوحشة ،
فترتمى فى أحضانها تلتمس متعة التجديد ، متعة الاستطلاع ، متعة
الإحساس بالخطر ... لأنها الملالة من المألوف ، والصبوة إلى
المجهول ، والطموح إلى الغلبة : عناصر غريزية كاسنة بين الضلوع ،
هى التى تملك علينا الأهواء ، وتحط لنا المصاير ، وتدفع بنا إلى
حيث نلاقى حتفنا ونحن راضون ...

ويغشاك الصمت هنيئة ، صمت الخالم يطير به الخيال كل مطار ،
ثم تصحو من حلمك ، لتدعو إليك نادلة المشرب ثانية ، فتسبى يدها
عما تعلم من شأن البحيرتين الآخرين فى دخيلة « الغابة »
العذراء ...

ثم تنهض خفيف الخطو ، يدعوك نداء المجهول ، فتخلف

وراءك الحياة البهيجة الأنيسة يتزايل صخبها دنك ، وتقتحم الغابة
التي يطبق عليها السكون والصمت فتحس الوحشة تغزو مشاعرك ،
وقد شحب ضوء النهار من حولك ، وزاحمت الأشجار دونك ،
توشك أن تطبق عليك ، فتواصل سيرك في الدغل المشتبك ؛
كأنك تشق بنفسك وجه الطريق ...!

وأنت تمنح في السير ، فيخامرك الشعور بأنك رائد يتدسس
إلى قلب « غابة عذراء » ... الطريق يعلو بك ويهبط ، ويتسع
أو يضيق ، ولكنه أبداً ذلك الطريق المتوحد الذي نخيم عليه
الظلال ...!

وبين الحين والحين تصادفك أودية ضئيلة ، يتوارى قرارها
تحت الأعشاب النامية في هيجة ورعونة ؛ فكأنما هذه الأودية
مسايل نهر خفي ، يتسرب في بطن الأرض لا تناله العيون ...!

وعلى مد الطريق تواجهك الصخور الصم الغبر ؛ كأنها أصنام
منحوتة على مثال كائنات غير بشرية ... كائنات كانت تسود تلك
المجاهل في عصر سحيق ... لا صوت هنا إلا خفق قدميك على
أديم الأرض ، وإلا وقع العصا نفسح لك السبيل ، وإلا وسوسة
الأفنان يناغى بعضها بعضاً في همس ...

ولربما طوح بك الوهم في هذه الغابة الصموت ، فتحسب أنك

في دغل لإفريق يتجافى عن العمران ، دغل يعمر بالزواحف والكواسر والسباع ، وما هذا الصمت إلا فترة ترقب وترصد يعقبه انقضااض وافتراس... فتسرع التلفت ، وتبحث الخطأ ، وإذا صوت رفيق يصافح أذنيك ، إنه خير جدول لايسفر للعيون ... ومهما تحاول البحث عن هذا الجدول ، فإنك لا تعثر له على أثر... أئمة جدول حقاً ؟ ... لتكن ما تكون أيها الرفيق المؤنس . حسبك أنك نفيت الوحشة ، وأسبغت على النفس أمناً ورضاً... إننا لا نراك ، وإن كنا نحس وجودك ، كما يحس المرء أطياف الراحلين الأعزاء ، وقد ألما في تطوافهم به ، يناجونه ويؤنسونه ، وإن تقطعت بينهم وبينه أسباب الحياة .

وتوالى سيرك ، وهذا الجدول اللطيف يصاحبك ، حتى يفضى بك إلى أولى البحيرتين ، فتقف تجاهها تتأمل... بركة قسراء ، ماؤها غير رقرق ، منطوية على نفسها هَيُوب ، ولكنها مع ذلك تسفر لك عن جمال يأخذ بمجامع القلب ، جمال العزلة والانفراد ، جمال الانقطاع عن كل ما يصلك بحياتك التي ألقت ، جمال النسيان ... على هذه البحيرة يرسم في خلدك أن العالم قد غفل عنك ، وأن اسمك قد حذف من هذا الكون المريض ، فتشعر بأنك قد تحررت من كل قيد ، وأن نفسك انطلقت على سجيئها انطلاق

الأرواح في عالم الخلود ...

وللى البحيرة الأخرى تلقى عصاك ، فكأنك تستأنف طريقك
الذى قطعته عوداً على بدء ، طريق الغابة العذراء ... وديان خضر
تستكن بين جذوع الشجر ، كتل من الصخور متجهة عوايس ،
صمت تطبق عليه الظلال ، وأخيراً ... بركة فقراء هيوب ...

وتخرج من غابة الصمت والظلام ... فيستقبلك ضوء النهار
في إشراق وجلال ، ثم تنهى إلى سمك أنغام موسيقية مشوبة ،
ولا تلبث أن تجد نفسك قد طرقت « الكازينو » ، وإذا أنت في
« ضجة الحياة الصاخبة ... ها أنت ذا قد عادت دنياك المألوفة ،
فما أسرع الزمن الذى نقلك في لحظات من مجاهل الأدغال إلى مجالى
« الحضارة والترف » ، بل ما أعجب ما تحويه « فلز » ، من غرائب
« وأضداد ، فهى تنتقل بك بين أجواء متناقضة ، ويثبات متباينة ،
وأنت فيها ما كئ لا تبحر ... إنها ربة معجزات ...

ظللنا يومين تحت وابل من المطر ، نمضى أطول الوقت فى أهواء
« الفنادق والمشارب ، مرة نتصفح الوجوه ، ومرة نطالع الصحف ،
يشغلنا نثر الناس تارة ، ولغو المذيع تارة أخرى ... فإذا مللنا
« ذلك كله نهضنا نطرح على أكتافنا شملات فضفاضة واقية ، ونعطى
« وسنا بطر اطرطوال ، وخر جناشجعانا نخوض معركة الأمطار ...

لزام أن نجرب التجول والتنزه والطبيعة رعتنا غضوب ، كما كنا
تجول وتنزه وهي مودة طروب ... ما أطيبها نزهة بليلة ،
يتساقط فيها القطر المنعش على وجوهنا الضاحكة القطنية ، ونحس
الماء ينصب على ثيابنا انصباباً ، ثم ينزلق عنها دون أن يصيننا
بأذى ، ونرى الطريق حيالنا ممتع الصفحة ، كالزجاج الأملس ،
والغابة هنا وهناك تنبسط عليها غلالة طافية من ضباب الجو ،
فتكسوها مسحة من سحر الغموض ، سحر الهيبة والجلال ...
ونميل بطرفك إلى الوادي الرحيب ، فتشهد المروج الفساح
بمغانها الزاهية ، ينهمل عليها المطر ، فكأنها تذوب ويسبح بعضها
في بعض ، ينبسط عليها جميعاً صبغة رمادية خفيفة الغبرة ، لا تترك
للعين من معالم الحياة فيها إلا أطراف كأطراف الذكريات البعيدة ...
وما هي إلا أن تراجع البلدة ما كان لها من صحو وإشراق ،
فتمزق الغابة عنها غلالها الطافية الرمضاء ، وتبدو متجردة زاهية
المفاتيح ، وإذا الوادي تتجمع أوصاله ، وتتخاق معاله ، يسفر عنها
وضح النهار الدافئ الجميل .
ومن ثم تصافح سمعك من فوقك وثبات السناجيب الرشيق ،
وهي تتردد بين الغصون في فرح وانتعاش ، وعلى أديم الأرض
تطالعك قطعان الأبقار ، منطلقة إلى المراعي ، تشهد غداها

أفترط العبق ، وإنما لتسير في وقار الحكام ، مصروقة عما يحيط
بها من الأشياء والناس ، كأنها من تفكيرها في شغل ، تراها تطرق
المسالك العامة ، وتنفل بين الدور الخاصة ، وتقف حيث تريد ،
وتنمضي حيث تهوى ، لا يحجزها حاجز ، ولا يردها عائق ، فهي
لها مونة الجانب ، وشديدة السعي ، ذات بصيرة نيرة ، وفطنة
موفورة ، لا تبعث بشيء ، ولا يضيق بها أحد ، تسالم الخلق من
حولها فيسالمها الخلق ، وتشفق طريقها في طمأنينة وهودة ، رهوسها
تهتز يمنة ويسرة ، في حركة راتبة ، فينبعث من الأجزاء المعلقة
في أعناقها صوت متناشق ، يعلن للبلأ مرور «موكب الفلاسفة» .
كل شيء جبالك مستيقظ مستبشر ، يتقاضى خطه من المتعة
في هذا النيفض الزاخر من النور والبهجة ، فلتختر لك نزهة في الهواء
الاطلق ، ولتقرب بخطاك إلى محطة «المقعد الكهربى» ... لا تخش
بأساً ، فليس مقعدك هذا كرسى الفناء الذى يتخذة الأمر بكيون
القتل المحكوم عليهم بالإعدام ، وإنما هو كرسى الحياة في علم
طريف تمزج فيه الحقائق بالآوهام ...

هذا المقعد الكهربى الطائر ، أو «المركبة الهوائية» ، وسيلة
من وسائل المواصلات ، استحدثها العقل البشرى أداة مريحة
للارتقاء الجبال ... هناك بقعة سامقة اسمها «ناروس» ، اختيرت

لتكون « محطة الوصول » ، فيها تستمتع بمباهج الجبال ، وتشهد
عن كتب روعتها الخالدة ... فإذا أبيت وراء ذلك إلا المزيد ،
فلتعد للأمر عدته ، ولتجهز لاقتحام ما يعترض طريقك من
الأوعار . وعليك أن تعول أول ما تعول على القدم الصلبة
والساعد الأشد ، ولكن مالك ترهق نفسك ، ولا تقنع بهذا
« الكرسي الكهربى » المريح ، يحملك على متن الهواء ، كما يحمل
الطائر الروم فرخه الحبيب ! ...

وتقتعد « الكرسي السحرى » ، فيقفز بك قفزة تلقيك في
جوز الفضاء ، وإذا أنت ساج بين الأرض والسماء ... لست
سجين طائرة يحكمون إغلاق أبوابها ونوافذها عليك ، وإنما أنت
في نزهة طريفة تمتطى نسرأ يتراعى بين الآفاق ، ولكنه نسر حذر ،
لا يبعد بك في طباق الجو ، بل يعبر بك الأنهار والمروج
والأحراج فتشدها دون ناظريك ، كأنك تتخطى أعاليها لا يمس
قدمك منها شيء ، وهذه سطوح الدور الريفية من تحتك ، تمر
بناسها وأبقارها وكلابها مر الكرام ، وهم يشخصون إليك يحيونك
في ترحاب . وإنك لترتقى مدارج الجبل على ظهر طائر السحرى ،
في هيئة ويسر ، حتى تبلغ الغاية عند « ناروس » .
ولا تكاد تقفز عن ظهر الطائر ، حتى تتلقاك جماعات من

الماعز ربيبة الجبال ، فتحيط بك أفواهها تنشم ، وتطلق نداءها
لك تتقاضاك ضريبتها على الزوار ، وإنما لتعقد من حولك سياجا
يحول بينك وبين التقدم ، حتى تنيلها ما تبغى من عطايا ومنح ،
فإذا نالت مأربها منك ، صدفت عنك ، لاهجة بحمدك ، تردد
ثغاءها الرقيق ...

وتلقى يبصرك تجاهك فتجسّدك على مستشرف صخرى ،
خلفك القمة الناصعة العليا موصولة بكبد السماء ، وأمامك المنحدر
المخضوضر العظيم ، ينبسط حتى يطوى « فلز » وما وراءها من
البلدان ! ...

على هذا المستشرف تتخذ مجلسك في مشرب ساذج ، وأفواج
الماعز تجوس خلال الموائد والمقاعد ، تبحث عن زائر أفلت
منها يؤدي إليها المنحة المقررة من الطعام .

هذه مملكة الجبال ، حامية الشمس ، باهرة الضوء ، باردة
الهواء ... قاحلة ليس فيها نبات ... وأنت تقف هنا على عتبتها
تحشع لجلالها المهيّب ، وتقنع منها بالنظر العابر ، فإذا أغرتك فتنتها
القاسية بالتوغل ، فألقيت في أحضانها بنفسك ، فهناك لا بد لك
من مصابرة ومقاومة وصراع ... لأنها قوى الطبيعة الجبارة ،
وعناصرها المتمردة . إما انتصرت عليها فضمنت سلامة الأوبة ،

ولما ترديت في مهاويها فتويت : وسادك من صخر ، وغطاؤك
من ثلج ... وما أظنك مشوقا إلى أن تتوسد الصخر الحشن ،
ولا أن تتخذ من الثلج غطاء أبديا لك ... حسبك إذن أنك أمتعت
ناظريك ، وأشبع فضولك ، ولتهرع إلى طائرِكَ ، يردك إلى
مأمنك ، ومن خلفك أمواج الماعز متواثبة تلهج بهذا الثغاء الذي
تعبر به مشاعر التوديع ! ...

الأيام تترادف صاحية السماء ، رخية الهواء ، فبلا اغتنمت
من الجو هذه الهدنة ، فخرجت إلى الزهرة ؟ ...

إلى دكون ، ... غابة تحتشد فيها الأدواح بأسقة فوارع ،
تلحظ فيها ظاهرة لا تكاد تلاحظها في غيرها من الغابات . فإن أفنانها
المتعانقة ، والضوء يحاول أن يتسلل إليها ، لترق وتلطف ، يمزجا
بعضها في بعض ، عليها غبرة أميل إلى البياض ، فيخيل إليك أن
هذا ضباب رقيق قد أطبق عليك ، يسد المسالك دونك ، ولكن
الطريق النسيح المعبد ، بما تقرأ عليه من لافتات متتابعة يهديك
السييل في يسر ، حتى يبلغك مثابة الأمان . فإذا انسلخت من مأسكة
الضباب الخضراء ، طالعك على الفور مرج هفهاف ، متراعى
الأطراف ، كأنه بحر هادئ الطلعة ، رقيق النسمة ، يسطع لونه
الزمردي سطوعا يبهز النظر ، فتراك تعضرب في أرجائه خفيف

الجلطو ، طروب النفس ؛ كأنما قد نبئت لك أجنحة ، أنت بها
على وشك أن تطير ...!

ومتى وصلت إلى شاطئ ذلك البحر المنتضر ، أو مقطّع ذلك
المرج المتموج ، فأنت إزاء عالم جديد فريد ، يد أنه عالم محوط
بالمخاطر الجسم ... إنك الآن على رأس شفير هار ، ينتهى بواد
عريض الجنبات ، وعلى حافته الأخرى جبال متساندة شواخ ،
ومن صدر الوادى ينبثق نهر «الرين» ، وهو يتعرج ويتلوى متدفقاً
هنا وهناك ، متألقاً فى وهج الشمس ، كأنما هو سبيكة من فضة
أذابها الوهج ، فانسكب ذوبها على الأرض منساباً على غير هدى .
ما أجمل السير على رأس هذا الشفير الهارى . والنهر تحت
قدميك هادر موّار ، والقرى أمامك على سفوح الجبال معلقات ،
والدنيا كلها ضاحكة جياشة تمرح فى بحبوحة الأمل ، فلا تملك
إلا أن تقاسمها البهجة ، طارحاً عنك ما تحس فى حياتك من هموم
وأثقال ، مواصلاً خطاك فى خفة الصبي النزق ، تستهريك المخاطر
غير هيّاب ولا حذر ، مزهوا بما يعتلج فى قلبك من إحساس
قوى بالحياة ...!

فى هذه البقعة الفريدة ، تتناير قوتان جبارتان تتساندان ،
على ما بهما من تناقض : قوة البقاء وقوة الفناء ... لقد أتيت

لها هنا حياة مواءعة ومسالمة وصفة ، لا حياة معاندة ومغالبة
وكناح ! ...

ثمّة نزهة أخرى يصفها دليل السياحة لمن تقدمت بهم السن ،
وحفت بهم مواكب الشيخوخة ! ... نزهة هيئة ليس فيها ما يرهق ،
فهي أصلح ما تكون لتلك الفئة المحظوظة من عباد الله ، فئة الراغبين
في الحياة ، أو تلك الذين نسيهم يد الجلال المثلث . فترة من الزمن !
لنض إذن كما أشار الدليل إلى « بوكين » ...

أى شيء أولى من « بوكين » بأن يزوره العجائز والشيخوخ ، وفيها
تقع طائفة من الأدواح الهرمة الضخام ، امتد بها العمر مئين من
السنين ... ثابتة لعاديات الدهر ، صابرة على أحداث الزمان ...
هذه مثابة العجزة من النبات ترحب بالعجزة من بنى الإنسان ! ...
نهمضنا إليها بطاء الخطأ ، فى تزلزل وتسمت ، وتتكلف وقار
الشيخوخة ، متحاملين على المعصى ، كأننا من فرط الإعياء
هالكون ... وتسربنا فى شعاب الغابة ، كأننا نضطرب فى
متاهة مسحورة ، فلما أشرفنا على تلك الهياكل المهيبة من شيوخ
الشجر ، جعلنا نرجع البصر حولها نتعرف زوارها من شيوخ
البشر ، ولكننا لم نر ثمّة إلا شباناً يمرحون متوثبين للحياة فانثيت
أفكر فيما أرى ، والدهشة تعرونى لحظة ، ثم بدالى أن ليس فى

الأمر ما يبحث على دهشة أو عجب ! ...

لا تجدن مسنا إلا يصدف عما يذكره بعلومه ، واستبانة
الشيخوخة فيه ، فهو عن تلك المشاهد معرض ، ومن تلك المعالم
نفور ... فيم إقباله على شيء يريه الفناء دانياً منه ، وحب البقاء في
نفسه غريزة قاهرة وطبع غلاب ؟ ... أما الشاب الذي هو في إقبال
من العمر ، وقوة من السن ، فعلام خشيته من مخايل الشيخوخة
ومعالم الهرم ؟ ... وكيف لا يطيب له أن يتلمى بمرآها وإنها لتبدو
لعييه طريفة تجتذب المشاعر وتستوى القلوب ؟ ...

ثمّة تجاوب وتجاذب بين النقيضين من شباب وشيب ، وإن سر
الحياة ليكن في هذا التآلف بين المتناقضات ، أو بالأحرى ما يلوح
لنا أنه من المتناقضات ، فهذا التآلف العجيب يسمو ذلك الصرح
العظيم ، صرح العالم المعمور ! ...

وقفت ملياً أتوسم أصدقاء الشيوخ في ملكة النبات ...
لا ريب أنك تحس لتلك الأدواح الدظام خشوعاً وهيبة ولكنك
لا تستطيع أن تدفع عن نفسك الشعور نحوها بعاطفة الرثاء
والاشفاق ... أنت أمام طائفة من أعجاز ضخمة ، وجذوع جهمّة ،
تحاربت عليها التجاعيد والأخاديد ، حتى طمعت ما لها من ملامح
وسمات ، وهذا أديم الأرض من حولها يتأكل ويتخلخل ، فيكشف

مستر الجذور الخاوية ، ويدعها تنفتت وتتعرى ، محاولة في تعقدها
والتوائها أن تنشب بأطباق الثرى ما وسعها أن تنشب ! ...
حول هذه الفئة المسنة من الجذوع والأعجاز ، تنمو عملاقة
من شباب الشجر ، مورقة فينانة ، تزهو بقدودها الفارغة ، وغصونها
الطامحة ، سامية بهاماتها إلى السماء ، تجتلى النور وتعب الهواء ،
لا يصدها شيء عن ثوب ومراح ، إذا اكفهر الجو انطلقت مع
العاصفة تعبت وتعربد ، وإذا صفا الأفق كان خفيف أوراقها
أنغاما موسيقية يسمعها الطير على الغصن الميتاد ، فيرسلها
بالأهازيج ... !

إنك لتتخيل هذه الأشجار الفتية وكأنها في الغابة صائفة جائلة ،
لا تهدأ لها حركة ولا يقر لها قرار ، وبجانها تقع الأشجار المسنة
في مكانها لا تريمه ، جذورها ناشبة يباطن الأرض في استماتة
واللحاح ، ينكش بعضها حول بعض في صمت وسكون ... أترك أيتها
الأشجار تعرضين صفحات ماضيك السحيق ، تستمرنين فيها المتعة
من ذكريات الشباب المولى ؟ ... وهل في تذكّار الماضي ما يسر ؟ ...
كلا ، إنها لأطياف متع ، وأوهام ملذات ، وماحياتك كلها إلا ماض
أدبر ، وما أنت إلا كتل صم خرس ، كأنها صخر صلد ... ولقد يقع
في وهمك أنك محظوظة بهذا الماضي البعيد ، محسودة على ذلك العمر

المديد ، ولكن من يرضى أن يشترى عالم الظلمة والوحشة
والخراب بلهجة من نور الشمس ، وخفقة من زهو الحياة ؟ ...

فيم بقاؤك أيتها الأشجار المعجزة ، والكون لا يفسح بين
جوانبه مكانا إلا لمن يسدى النفع ، ويؤتي الثمر ، وأنت لا تؤدين
ضريبة الوجود ، حتى إن الخطاب ليمر بك في غير اكتراث ،
لا يستويه منك شيء ، يضمن بفأسه على جذوع نخرات باتت مرتعا
للسوس ومأوى للحشرات ! ...

الحكمة بقيت تعمير أيتها الأشجار ، فإن شيخوختك الصامتة
لتحفل بتجربة الدهر وعبرة الأيام ، وإن الحى ليتأمل سطوراً
خطتها يد الأقدار على جبينك المتغصن ، فإذا هي تحد من غروره ،
وتكتمكف من غلوائه ، وإذا هي تلهمه روائع من اللغات يفقه
بها فلسفة البقاء والفناء ! ...

حسبنا ما شهدناه من نزه « فلن » ... فلن أطعنا الهوى في
الخروج إلى ما هنالك من بحيرات وغابات ومشارف ، لما بقى لنا من
الوقت ما نحتجزه لزيارة غرضنا المقصود ، وهدفنا المنشود ، أعنى
صاحب السطوة والاقترار ، صديقنا « الطيب » العظيم ! ...

علينا أن نختار نزهة واحدة إلى خارج « فلن » ، نزهة تزور
فيها ما هو أخلق بالزيارة في تلك البقاع المتطرفة ... ووقع اختيارنا

على «أروازا» التي تبعد عن «فلز» نحو ساعتين ... بلدة جبلية تتميز بطيب الهواء ، وتتفرد بموقع شائق ، وهي لذلك مصحح عالمي خذائع الصيت ، يحج إليها مرضى الصدر فينشدون فيها النقاء والشفاء ، وهي فوق ذلك مثابة مشهورة يؤمها في الشتاء هواة الانزلاق على الجليد ، يمارسون فيها تلك الرياضة الطريفة .

وفي مبرق الصبح نشطنا نركب الحافلة ، وجهتنا «دكوار» ، حاجتنا «فلز» القرية ، وهي تنخفض عن «فلز» المتبره ... ومضت بنا الحافلة في سيرها تشق طريقاً ممدوداً تكتنفه الجبال الشواحق ؛ كأنها ذراعان ضخمتان عن يمين وشمال ...

أمام ناظريك عباب من نبات الأرض هادىء الصنمحة ، زمردى الصبغة ، يفيض على النفس طمأنينة ورضا . وبين فترة وفرة تبرز لك جزر لطيفة ، تارة تعترض طريقك وسط عباب الخضرة ، وطوراً تراها عالقة بما تحسبه شاطئ العباب ... إنها قرى تتناثر في صميم الريف السويسرى ، تحاها منعزلة ضائعة في ذلك الحضم الشاسع ، وهي في الحق موصولة بأسباب الحضارة والعمران ... فإذا طرقت إحداها ، واحتواك فيها مشركل تترشف قدحا من القهوة ، راعك ما تأنسه في ذلك المشرب الريق من نظافة وأناقة وجمال . واسترعى انتباهك ذلك الأسلوب العصرى في

تأنيث المشرب وتنسيقه وإنارته .

ولعلك تعجب كيف عرف « الفن الحديث » سبيله إلى تلك القرية النائية ، فطغى على عرفها الموروث في التنسيق والتجميل ، ولكنك تدرك أن الطريف النافع — وإن استغربته الأذواق ، وخالف مرسوم الأوضاع — مكتوب له الذبوع والانتشار ، وإن بعدت الدار ، وشط المزار ! ...

وتواصل الحافلة سعيها بك ، تحترق الشاطئ المشرف على بحر الزمرد ، وتجاوز بالقرى في سير هين ، فيتجلى لك الروح الديني عظيم المهابة ظاهر السلطان ! ... على رموس المسالك ، وفي بهرة الميادين والساحات ، تقوم تماثيل القديسين ؛ لتستريح إليها أعين الخشوع والإجلال ، ومن حوالها تسمو الكنائس رفيعة الذرى في أشرف المواقع ، ومن نواقيسها يتعالى الرنين مهيباً بالأهلين أن يتطلعوا إلى السماء ، وأن يستقبلوا وجه الله ، فلا تلبث الجموع أن تستجيب ، مقتبسة من سنا الرحمة والمحبة والهدى ! ...

الله في كل مكان ، فيضه يغمر الكائنات جميعاً ، فيشغل كل حين ، ويملا كل فراغ ... بيد أنك لا ترى الله جهرة ، وإنما يقول لك سبحانه أحسن من تلقني ، واستشعر وجودي ترني ، ولكن القلوب أكثرها غلظ ، ومن البصائر ما هو مطموس ، ومن الحس

ما هو متبلد ، فالتقرع النواقيس مجلجلة مصاصلة ، ولينبعث دويها
في الآفاق يذكي النفوس الخوامد لتستشعر وجود الله ، ويوقظ
العيون النواعس لترى واهب الحياة ! ...

وتجهدك مقبلا على « كوار » ... فتزاييل الحافلة ، لتجول في
المدينة جولة ، وإذا أنت قادر أن تلم بأطرافها في ساعة من الزمن ،
وأكبر ما يلفت النظر فيها هذا التناقض المحبب ، هذا المزاج الرائع
من ريف وحضر ، من معالم تمثل مدينة العصر الراهن ، وأخرى
تمثل العصور الوسطى وعهد الإقطاع ! ...

تضرب في شوارع البلدة ودروبها ، فتزى الجبال الخضراء
والحقول الخصبة تطل عليك من كل فرجة تصادفك ... أنت هنا
في عاصمه الإقليم ، كل ما فيها يشعرك بحياة المدينة التي بلغت شأوا
بعيدا في التحضر ، وعلى الرغم من ذلك تحس بأفك في صميم الريف ،
فهذا النسيم يحمل لك في أعطافه عبق المراعي ، وشذى الرياحين ،
وإن خوار البقر ليطلق سمعك وأنت بين يدي متجر تتسلى بما يبدو
في معرضه الزجاجي من أزياء « باريس » وسلع « نيويورك » ...
ولا تكاد تنحدر عن الشارع العام بحضارة العصر ، إلى درب
من الدروب المتفرعة ، حتى تراك قد انتقلت إلى العصور الوسطى ،
طريق يضيق ، أرضه من حجارة غلاظ ، على جانبيه أبنية متقاصرة

عتاق ، حليت جذرائها بالنقوش والرموز والتهاويل ... ولقد
تقف أمام قبو متطامن ، أو بوابة أثرية ، أو مدخل مظلم لدار تقادم
عليها الزمن ، فترف على خاطرك أطيايف من معالم معهودة لك ،
حبيبة إلى قلبك ، هي معالم «خان الخليلي» و«التربعة» في القاهرة ،
وسرعان ما نحس انقباضاً وحسرة ، إذ ترى هذا الذي يطالعك
الساعة في «كوار» يمثل الماضي في إحسان صقل ، وإبداع تنسيق ،
فيبرز محاسن هذا التراث ، ويزيده من تألق وإشراق ... أما في
«مصر» خاصة ، وفي الشرق عامة ، فإن ترائنا الثمين على جمال سماته ،
وفتنة سحره ، يبدو وقد شوهه الإهمال ، فأفقدته الجمال ! ...

وابتغينا المحطة نطلب القطار ، قطار الضواحي الجبلية ، المتسم
بطابع الأناقة والرشاقة ، فانساب بنا إلى أطراف البلدة ، يُشهدنا
ذلك الطوار العريض المظلل بالعرائش الخضراء ، تحتوى بها المطاعم
والمشارب والأندية ...

وزاملنا النهر ، فضى اللون بسام الطلعة ، تتوالى عليه قناطر
من الصخر ، والقطار على هيئته يتعجل ، حتى لا يفوتنا التأمل ، ثم
يرتقى بنا مدارج الجبال ، فتكشف لنا الغابات متراسة على السفوح ،
وتتراحب دوننا المهاوى المسحقة يترقرق بين أحضانها النهر المنفضى
الوابع ، وتباغتنا الأنفاق واحداً بعد احد ، فتسل بنا إلى القناطر

الحجرية ، متعالية بصددورها كأنها تبرز تأهباً لعبور القطار ،
وتتوالى علينا المحطات محلاة نوافدها بألوان الزهر ، حتى ندانى
« أروزاء ، فتترامى لنا بحيراتنا الحسان ، وعلى حافاتها المصحات
والمخاني ترصع الجبل الخصيب ! ...

وما نزال كذلك حتى يوفى القطار على غايته في تلك الرقعة
النائية ... فإذا هبطت البلدة ، وطوفت ببصرك حولك ، ألفيت
المدينة طبقات بعضها فوق بعض ، مسالكها ومنازلها وبحيراتها
الثلاث ... إنها مشارف عالية ، تنفرج تحتها الوديان الشواسع
وقد كسّتها الطبيعة من نسجها أبهى زينة وزخرف ! ...

وتجول في المدينة لزور بحيراتها الغاصة بالسباحين والمتنزهين ،
وتلم بمناجرتها الحضرة الأنيقة ، وتجوز بما فيها من مختلف الدروب
والرحبات ، فإذا هي بقعة ساجدة كلها سكينه وصفاء ، لكأنك بين
جوانبها في محراب للصلاة ، لروحك منها أمن وطمانينة وارتياح .
لأنها بلدة يزعمونها للمرضى مثابة وماوى ، وما يجرو المرض
أن يرفع هنالك هامته ، ففي هذا الإشراق الساطع ، والدفء
الشامل ، والجو الرخى ، يتفقد المريض أوصابه ، فإذا هي قد
تخلت عنه ، وإذا هو قد نفّض عنه فراشه ليستمرى العافية ،
ويتملى بهجة الحياة ! ...

رجعنا أدرأجنا إلى « فلهر » والظلمة تحبو على حواشي الأفق ..
ونسيم الليل البارد يعايش الوجوه ، ويسرى متسللا إلى الأوصال ...
آن لي أن أمسك عن التطواف في هذه المدينة وما حوالها
من الضواحي ، وأن أدخل إلى شيء من الراحة في ركن خلى ، أسجل
بعض الحواطر والمذكرات ، وأطالع ما يسر لي من أنباء الصحف ،
إذ بعد عهدي بالعالم وما يدور فيه من أحداث وشئون مضحكات
تبكي الطروب ، أو مبكيات تضحك الحزين ...

آثرت مشربا في ناحية من المدينة ، على طريق مهجور ... مشربا
يقوم على هضبة مستعصفة ، تطل شرفته على شجيرات فانية خاوية ،
فهو ينأى عن ضجيج المدينة في ميدانها العامر بالحافلات والسيارات ،
ينأى عن هذا الجمع الزاخر من رواد المصايف الجبلية ، يتخيلون
في أكسيتهم الكاشفة ، وذلك الشرطي العتيد - شرطي « الأحد » -
في جلسته وحلاه ، يوهم نفسه والناس معه أنه حامي دمار البلد ،
والمهيمن على أقدار البشر ...

لا شيء من هذا كله تحت سماء ذلك المشرب الساذج ، فما أحسنه
مثوى للمطالعة ، ومهبطاً للوحي ، وخلوة للمناجاة ... هنالك
ذهبت يوما أفضى الضحى ، منصرفا إلى الصحف والأوراق ،
أتعهدا بالترتيب والتنظيم ، وإلى الأقلام أشرعها لخوض المعارك في

حومة الفكر ومعهم الخيال ! ... وأنا مسترخ في جاسقي ،
أنرشف من قدح القهوة على ترفق واتشاد

وتتهادى إلى سمعي رقائق أنعام ؛ كأنما هي غناء هامس ،
أو كأنما هي أنشودة الطبيعة حوالى ، فلا أعنى نفسى بالسؤال عنها ؛
من أى مصدر تنبعث ؟ ... حسبي أنها ألحان شاجية يتحنن لها القلب
ويصبر ... وأرائى مصغياً أسمع على غير قصد ، وأمامى الصحف
والأوراق مبسوطة على المنضدة تترقب ، وأقلامى تحالسى النظر
بين آن وآن ، مسنونة الأطراف ، مشبوبة الشوق إلى المصاولة
والنزال ، وما تزال الأنعام الرقائق تتواصل على سمى ، وأنا حالم
النظرة ، ساجح الخطرة ، أحسب نفسى أستنزل الوسى وأستندى
الإلهام من علوى الآفاق ، حتى يمتد بي الوقت وأنا عن كل شىء
ساه ... فيثوب وعي إلى حين ينقطع عني وافد النعم ، فأرفع
هامتى أتساءل : ما خطي ؟ ... فإذا الساعة المعلقة على الحائط تعلن
لى فى ابتسامة حيية أن موعد انصرافى قد حان ...

هأنذا أمضى قرابة ساعتين من نهارى على هذا الكرسي
الرخي ، وما برحت يمىي بقدح القهوة عالقة ، وبقالى الصحف
والأوراق تهامع فى شأنى ، والأقلام المسنونة تتغامز بى ...
حقاً لم أقاربك أيها الرفاق ، فليتقولى لى لم أفعل شيئاً ، ولتسنخرى ،

مبنى ما بدا لك أن تسخرى ، لك أن ترميني . بأنى أضعت الوقت
 بنفى « لاشى » ، ولكن هذا « اللاشى » فى نظرى « شىء » عظيم ،
 « شىء » عزيز ، « شىء » يتصاغر دونه كل شىء ١ ... لأنه دعة
 النفس ورخاوة الوجدان . ساعة من زمان ... أثمة ما يعدل هذه
 المتعة الغالية ؟ ... إليك عني أيتها الصحف والأوراق والأفلام ،
 بل إلى النار والدمار والانكسار ... إني لأبيعك جميعاً ، ومعك
 أعجاد الحياة وعظام الدنيا بأسرها ؛ لأشتري بك جانباً من هذا
 « اللاشى » ، هذا الذى يبدو تافهاً لا خطر له ، وهو فى الحق
 بلا نظير له فى نفاسته وعزازته ؛ لأنه يحوى زبدة الحياة وما فيها
 من جوهر رفيع ١ ...

تلاحقت أيام « فلز » حلوة هنية ، قضيناها فى صحبة تلك الغادة
 « الطائرة » ؛ كأننا ننعم بحلم يتفرق صفاء وعدوبة وبهجة .
 وحان رحيل ...

ركبنا حافلة تقصد بنا إلى « كوار » ، ليقب لنا القطار هنالك إن
 « لوزان » ... فى هذه الحافلة أخلط من الناس ، بينهم رواد
 المصايف . ومن إليهم من ذوى الجاه والثراء وهم يحالسون الغمال
 والقرويين . ومن إليهم من كل ذى حرفة ومهنة ، لا يعميك أن
 تعرف فيهم جامع القمامة ومنظف المداخن وغيرهما من الأشباه .

ولكن الناس هنا على تباين طبقاتهم سواء ، يجمع بينهم مظهر
لائق ، وسمت لا تنكره العين ، فما منهم إلا موفور الحظ من
نظافة الملابس وحسن السلوك ! ...

ترى متى يسعد الشرق بمثل هذه المساواة ؟ ... لا يأس من
الإصلاح ، ما دام السعى إلى رفع المستوى الحيوى واسع الخطأ ،
وما دام الوعى الاجتماعى إلى يقظة وانبعاث ...

ليس يسيراً أن تنصهر أمة طالك عهدا بتعدد المنابت
والأجناس ، وتتافر الأذواق والمشاعر ، وتباين درجات التريبة
والتثقيف ، وما يتم هذا الانصهار بين عشية وضحا ، ولكن كل
آت قريب ! ...

أطلقت لخواطرى عقلاها ، أفسح لها مجال التفكير والتأمل ،
وأنا أعرض أشتات المشاهد التى صادفتنى فى أثناء زيارة المدين
السويسرية فى هذا العام وفيما سلف من أعوام ...

لأتى لأسجل تمجيدى لتلك الأمة الصغيرة بين ربوع
«سويسرة» ، تلك الأمة التى تحفظ التوازن العالمى فى ميدان
الحرية والسلام ...

ما أجل جهود الأمة السويسرية فى تعمير بلادها وتمدينها
لتنكى تسار ركب الحضارة فى خطاه الفساح ... العمران فى كل

صقع ، تمتد يده الساحرة إلى القرية الضئيلة التي نحسبها في العالم
الملئى ، كما تمتد إلى الغابة المستوحشة التي نحسبها مأوى لغير
الإنسان . أما الصناعة في المدن الكبيرة فهي حركة دائبة ، عمال
يعبدون الطرق ، ويشقون المسالك ، وآخرون يقيمون الجسور
ويعلون الصروح ، وأنت في كل عام تشهد جديداً من المنشآت
والمؤسسات في شتى مرافق الحضارة آلية وغير آلية .

إنى لأحنى رأسى لكباراً لتلك الأمة العظيمة ، فإن ملايينها
الأربعة هي أجدى على الإنسانية من ملايين من الناس يفوتهم
الإحصاء ، يرددون أنفاس الأحياء وما هم بأحياء ...
لهذا البلد الأمين سلام ...!

الفكرة الجديدة

أرأيت إلى السحب كيف تنبسط غلائلها بين السماء والأرض
ثم لا تلبث أن تتلبد وتتكاثف في عرض الأفق ، وما هي إلا أن
تنحل عراها وابلا من الماء ، يهطل على الربوات والقمم ، وإذا
هو على السفوح شلال عارم ، يهدير موجه ، متدفعا إلى الوهاد
والبطاح ، حاملا إلى الوادى الجديد أسباب الخصب والنماء ...
شبهة هذه السحب بتلك « الفكرة الجديدة » التى تتجمع فى
أفق الوطن ، منبعثة مما يعتلج فى نفسية الأمة من أشواق إلى
الرفعة والتقدم ، وما يتمنخض عنه الوعى القومى من رغائب
وأهداف ، وما تزال « الفكرة الجديدة » تستجمع وتحتشد ، حتى
تبلغ غايتها من التعبئة والتشجيع ، فإذا هى تعم أرجاء الوطن بغيث
يحيى أرضه الموات ، ويظهر جوانبها مما يتدسس فى الأخاديد
والغضون من أوضار وأدران ...

وكما تتخلق السحب ثم تتدفق ، طوعا لا قدار يترتب بعضها

على بعض ، ووفقاً لسنة الله في خلقه ، وانسياقاً مع الطبيعة في عنائها
الممدود ونظامها المرسوم ؛ — تنبثق كذلك « الفكرة الجديدة »
في موكب غير منظور من الدواعي والأسباب ، فهي قدر محتوم ،
وسنة لا تبديل لها ولا تحويل ، وظاهرة تتخذ لها ما تتخذ الظواهر
الطبيعية من المقومات والأسناد ...

ما تحسب أول وهلة أنه وقع فجأة في وقته ، وأنه شفو الساعة ،
ليس في جليلة أمره إلا وليد تدير خفي ، ربما استبهمت معالمه
حتى على الذين خاضوا غمرته ، وزاولوا تجربته ، فإذا هم — وإن
كانوا لا يعلمون على وجه التحقيق — دعاة وشيعة وأعوان ...
الطامات دبرت الآراء المتلاعبة ، والخواطر المتناجية ، لونا من
المؤامرات الفكرية لا ترى ولا تحس ، ولا يؤبه لها باديء بدء ،
ولكن جو البيئة يمدّها بأسباب العداء والنماء ، ومر الزمن يسعفها
بأطوار الحياة والإيناع ، وما هي إلا أن تستعلن « الفكرة الجديدة »
على نمط سوى ، لا شذوذ فيما تقوم عليه من فواتح وخواتيم .

هيات أن تنبت « الفكرة الجديدة » في غير إبانها ، وتعوزها
عوامل الإنبات . فإن الحياة والحركة في هذا الكون يحدوهما نظام محكم
وتنضمعهما قوانين منطقية دقيقة ، وإن الأحداث في المجتمع الإنساني
من الطبائع والعلل ما للأفلاك السماوية حين تدور بحسبان ! ...

فإن راعتك فكرة جديدة في مظهرها حين تنجم ، أو استبطأت
فكرة جديدة أنت ترى وجوبها وتنادى بها فظن بنفسك الظنون ،
وراجع أمرك في روية وتدبر ، ليتجلى لك على غير شك أنه لا عجلة
فيما حدث أمس ، ولا بطله فيما لم يحدث اليوم . فلكل شأن مميّاته
ودوافعه ، ولطبائع الأشياء سلطانها الغلاب ! ...

والفكرة الجديدة ربما تسترسل في ثورة عشواء ددمرة ، كما
وقع في الثورة الفرنسية التي هبت تعلن حقوق الإنسان المدنية ،
وفي الثورة الروسية التي انبعثت تشريع للإنسان حقوقه الاقتصادية ،
ففي هذين المثالين تدفق شلال الفكرة عارما لا يبالي التخريب
والتدمير ، فهو يهدف إلى الرى والإخصاب ، ولكنه يجور
بفيضانه حتى يبلغ حد الإغراق ، وعلى الرغم مما يبدو في ذلك
من شذوذ وإفراط ، فإنه يمثل ظاهرة طبيعية لها مسوغاتها
وملابساتها في عهد الثورة الفرنسية وثورة الروس .

بيد أن الفكرة الجديدة على أية حال لا تعتم أن ينجاب عنها
الشذوذ والإفراط ، فتسير بالحياة في قصد واعتدال ، وفق المنهج
الذى تحتمه البيئة ومقتضيات العيش ، مما يوفر الخير للناس ،
ويحقق المصلحة للمجموع ، فإن نجاح الفكرة وازدهارها رهن بما
تحمل في طواياها من صلاحية ، والعالم يمضى صوب الرقى والتقدم

ويتطور نحو الخير والصلاح ، فكل فكرة ناجحة لابد أن يتطوى جوهرها الأصيل على خير الإنسانية ولا بد أن يرعى الصالح العام .
الركب البشرى بنشد التعمير والتشيد ، ويسعى إلى التوافق والاندماج ، ويحلم بالوحدة والتكافل ، وهو إذا هدم فإنما يهدم ثينى ، وإذا خرب فإنما يفعل ليعمر ، وإذا خاصم وحارب فلسكى يحيا فى أمن وسلام . فالفكرة الجديدة فى عنوان ثورتها لا توثى أكلها إذا لم تكبح جماحها ، ولا تنتصر على غيرها إلا إذا انتصرت .
أولا على نفسها ، فعونها على الثبات والاطراد كامن فى اتخاذها أهداف التجميع والتأليف والبناء .

للفكرة الجديدة فى أطوارها طبيعة ثابتة ، فإنها حين تنصيب من الأعلى طوفانا يفرق ، أو موجا يتدفق ، لا تلبث إذا تحدرت إلى شعاب الوادى لتشق طريقها فيه ، أن تتخذ فى مسيرها ذلك المسيل الأصيل الذى احتقرته الأحقاب والعصور ، لا لكى تركن الفكرة الجديدة إليه ، وتقنع به ، بل لتنفذ منه إلى مسائل مستحدثة ، بقدر ما يسمع لها به حكم البيئة وطبيعة الوديان ، وتلك مرحلة الصراع بين القديم والجديد يتساجلان الغلبة ، ويتبادلان التأثير والتأثر ، حتى ينتهى الأمر إلى بقاء الأصلح ، فتأخذ الفكرة الجديدة طريقها القويم فى مزاج من العناصر الصالحة يثمر أطيب الثمرات .

ولقد تهبط الفكرة الجديدة هادقة إلى أفق جديد ، لا يخلو من تطرف ، وقد رسمت لسميها خطة معينة تبلغ بها الغاية، ولكنها تجرد نفسها — في سبيل احتفاظها بحياتها — قد انتهجت في طوعية ومرونة منهجاً آخر تدعو إليه الملائسات والأحوال، وربما تم ذلك على نحو تسوق إليه الطبيعة الدافعة في غير قصد ولا عمد . وحينئذ تبدو الفكرة الجديدة في أبواب مفصلة على القدود، فتحمد ما صارت إليه من أوضاع عملية ، وترضى عما أتيح لها من حسن التطبيق ! .

ليس بكاف أن تكون « الفكرة » خيرة صالحة نافعة لكي يؤمن بها الناس ويوفوها حظها من التقبل والإذعان ، فما تستغنى فكرة جديدة عن دعامة أخرى غير الخيرية والصلاحية والنفع ، هي أن تكون « إنسانية » تمت بأوثق الوشائج إلى هذا الأدمى الذى نريد منه أن يقيم من نفسه نموذجاً لتلك الفكرة فيما ترمى إليه .

فلزام إذن ألا تخلو الفكرة من مختلف العناصر ، التى تمثل — أصدق التمثيل — ما تنطوى عليه نفعية الناس من غرائز ومشاعر ، وأكاد أضيف إليها النزوات ...

حياة الفكرة الجديدة فى أن يستجيب لها الشهور العام ، وأن يكون المرء قادراً على أن يداججها فى سعيه لنفسه وفى معاملته لغيره، فإن لم تكن العكرة أهلاً للاستجابة والمداججة فهى لا تزيد على أن

تكون لوناً من الدعوة الحرة أو الموعظة الحسنة ، ترنج لها أعواد المنابر ، أو تفيض بها أشنات النشرات ، دون أن تبلغ من العزائم والهمم مبلغ التنفيذ ، أو تنزل من القلوب منزلة الإقناع ، وقصارى ما تظفر به فى دنيا الناس محض الاستماع والاطلاع ! ...

والإنسان فى سيره إلى الكمال ، وطلبه المثل الأعلى ، لا يفتأ يهفو إلى الفكرة الجديدة عسراً بعد عصر ، فلكل عصر فكرته ، تحيا فيه موفورة الإكبار والتقدير ، حتى تتأصل جذورها فى المجتمع ، وتكاد الأمة بولها شرف التقديس ، ولكن الفكرة تجمد على الزمن ، وركب الحياة سيار ، والدنيا بأهلها تتجدد ، وإذن يستبين للأمة أن هذه الفكرة قد أدركتها الشيخوخة ، ونال منها الإعياء ، ولم تعد فيها بقية تلاحق بها الوعي الحاضر ، فتعلن الأمة عليها ، فقمتمنا فى رفق أو عنف ، وتستبدل بها فكرة جديدة تلائم العهد الجديد . وهكذا دواليك ، حتى يقوم الناس لرب الناس ! ...

فكرة الأمس التى هرمت اليوم وأعيت ، كانت لها قيمتها حين . نجمت ، وإن عجزها اليوم عن مطاوعة العصر الراهن ليس دليلاً على أنها فكرة تافهة ، فقد أدت فى ماضيتها وظيفتها اقتضتها الأحوال والملابسات ، واستلان لها قياد النفوس ، ولو لم تكن موافقة للزمن السالف لما عاشت فيه . ولو لم تكن مسيطرة لشعور الجماعة

علما استطاعت أن تمسك في الأرض — ومن ينظر إليها في حاضره
نظرة زراية وتحقير كن ينظر شرراً إلى شيخ قوست ظهره السنون ،
ومشى يتوكأ على عصاه ، كأن لم يكن هذا الشيخ وافر الفتوة ناضر
الشباب ، في عهد طوت صفحته الأيام ... !

مخطيء من يدير في خلدّه أن فكرة جديدة مما يستحدثه العصر
الحاضر كان من الممكن أن تحيا في العصور الخالية ، وأن تكون
أصلح لها مما شاع فيها من أفكار ، فكل فكرة تحدث هي بنت
العصر ، وهي وحى اليثة ، وجوهر قيمتها أنها تخدم مجتمعا الذي
نبتت فيه ، وتبلغ غرضها الذي هدفت إليه ... !

أى سمع لا ينبو اليوم عن كلمة « الاسترقاق » ؟ ... وأى شعور
يستطيب اليوم استعباد الإنسان أخاه الإنسان ؟ ... ألسنا نرى
في ذلك ضربا من الوحشية تأباه الكرامة البشرية ؟ ... أو لسننا
نعد افتئاتا على الحق الطبيعي وخروجا على العدالة والمساواة ؟ ...
ولكن التاريخ فى أسانيده القويمة يثبت لنا أن هذا الاسترقاق
البغيض كان فى عهود سوائف من العمد الوطيدة للأنظمة التى قام
عليها صرح المجتمع القديم ، وبفضل الاسترقاق تقدمت البشرية
خطوات فى سبيل العمران ردحا من الزمان . وكذلك الدراسة
الفلسفية للطبائع البشرية والمجتمع الإنسانى تنقل إلينا أن بعض

فلاسفة الواقعية — وعلى رأسهم المعلم الأول «أرسطو» — كانوا يرون أن الطبيعة فيما ترمى إليه من البقاء هي التي خاقت بعض الكائنات الإمرة وبعضها للطاعة ، فمن الناس عبيد بحكم الطبع ، والرق في حقهم نافع بقدر ما هو عادل . فأين تقع من نفوسنا اليوم فكرة الاسترقاق ؟ ... وأين تنزل من عقولنا اليوم فلسفة الرق ؟ ...

الضرورة الاجتماعية ، والمناسبة الحاضرة ، هما اللتان نفسحان للفكرة الجديدة في الصدور ، والإنسان يتأثر بها في حياته ، ويتطور معها فيما يلبس من عيشه . ولكنه مع ذلك يؤثر فيها ، فما يزال بها حتى تكون من غرائزه وأهواءه ونمسه على وفاق .

على موقد الزمن — في سيره الخثيث ، وضرامه المحتدم — قدّر كبيرة للطهو والإضاج ، فيها تنصهر كل فكرة جديدة ، حتى تكون مستساعة صالحة تؤكل وتهضم ... إنها قدّر الحياة ، والطاهي الأكبر هو الإنسان ، هو ذلك الفرد الذي يتألف من أمثاله بمجموع الأمة ، تقهره طبيعته البشرية التي هي مزاج من سمو وتهافت ، ومن قوة وضعف ، ومن مثالية وواقعية ، فيعمل ما وسعه أن يعمل على أن يكون طعامه طبيعياً يستطيع أن يزدرده ، وأن يحيله مادة تغذوه وتنميه ... !

كثيراً ما تتخذ الفكرة الجديدة في باكورة أمرها صبغة مثالية رفيعة تنأى بها عن طبيعة البشر ، ومن ثم ينشب النزاع بين الفكرة في مثالياتها ونفسية الإنسان في شتى غرائزه ، ولأنها لمحرك حميدة تنجلى عن الفكرة وقد نالها شيء من التشذيب والترويض ، متأثرة بواقعية الطبع البشرى ، كما تنجلى عن النفس الإنسانية وقد أفادت شيئاً من الصقل والتهديب ، متأثرة بما للفكرة من مثالية عالية . وإذن تخطو المدنية في سبيل الحق والعدل والخير ، خطوة جديدة لم تكن سجلتها لنفسها من قبل .

ولعل أكبر العوامل على تطور « الفكرة » وتطور النفسية البشرية معها ، هو ميدان التجربة ، وإنه لميدان يختلف باختلاف البلاد والبيئات والملابسات ، فلكل أناس مشربهم ، ولكل قوم طاقاتهم فيما يأخذون وما يدعون من أنظمة وشرائع ، محكومين بما ورثوا من عرف وتقليد ، وما يحيط بهم من أسباب العيش ومرافق الحياة .

حسب « الفكرة الجديدة » — وإن تطرفت في مثالياتها — أن تنطوى على عنصر صالح ، وأن يكون جوهرها صحيحاً لازيف فيه ، حسبها أن توائم نفسية الشعب في مجموعته ، وأن تكمن فيها بذرة النفع وروح الخير ، فذلك قوامها الذي يكفل لها

البقاء والاستقرار ، فأما تفصيلات الفكرة — في نطاق تنفيذها —
فإنها رهن التجارب وطوع المقتضيات والأحداث .
ومن الغفلة — بل من الغباوة — أن يدعو التزمّت والمحافظة
إلى التنكر « للفكرة الجديدة » وأن تعد من الطوارئ الدخيلة
التي يحدى فيها التجاهل والإغضاء ، فالفكرة حين تحدوها الدوافع
الطبيعية على أن تحيا وتزدهر ، جدرة أن تعان على أداء رسالتها
في المجتمع ، وأن تستقبلها الصدور بترحاب وتأيد . ومن قصّر
في ذلك فهو في حق نفسه آثم ، وعلى نفسه يحنى ، إذ يتخلف عن
الركب السيّار ، فأما « الفكرة » فما دامت صحيحة الجوهر ،
خالصة لخدمة المجموع فإنها تمضى وتمضى ، لا تصدها عن الغاية
عوائق الطريق ،

الشارب الذي حكم إمبراطورية...

كما يكون ظهور العظيم وسطوع نجمه مثاراً لأفكار وخواطر ،
تكون وفاته وانطواء صفحته كذلك مثاراً للخواطر والأفكار ،
فهيات أن يموت عظيم في أية ناحية من نواحي الحياة إلا تبعته من
نفوس الناس مناجيات وتأملات ، لعلها أوفر حظاً من الصدق
والحق ، وأخلص جوهرأ من الحفيظة والرياء ...!

مات منذ قليل زعيم « روسيا » الكبير « جوزيف ستالين » ،
فلم تكد أسلاك البرق تهتز بنبأ رحيله ، حتى أصبح الحديث عنه
شغلا شاغلا لكل من يتدبر أمر هذا المجتمع البشري في الكون
العريض ، فما كان « ستالين » إلا رجلا من أفذاذ العالم الذين يديرون
دفة الحكومات والدول ، ويهيمنون على مصائر الأمم والشعوب .
وربما كان أول ما يسبق إلى الخاطر في هذا البناء أن يسأل
المرء نفسه : أ كان موت زعيم « السوفييت » في الوقت الذي يحمل
به أن يموت فيه ؟ ... أم استأنى به الزمن بعد وقته ؟ ... أم عجّل به
بعض حين ؟ ...

الوقت الذى يعينه القدر لنهاية الحى ، له أبلغ الأثر فى تقدير مكانة ذلك الحى ووزن قيمته وعمله ... فالسعيد حظه من كتب عليه الموت فى الوقت الذى يجب أن تنتهى حياته فيه ، وينقطع عنده عمله ، ليدخل حسابه بعد ذلك فى ذمة التاريخ ...!

كثير من الشغاء الذين أسفرت بواكير نبوغهم فى عصر الشباب ، لم يعيهم القدر القاهر ، فمضوا منقوصى الحظ من تمجيد وتخليد ، ولعل الأسوأ منهم خطأ أولئك العباقرة الذين بهروا أزمانهم بالمعجزات ، ولكن تراخت بهم الآجال ، فلبسوا فى حياتهم بواصلون العمل والإنتاج ، بيد أنه إنتاج هزيل لا يلائم المكانة التى تبوموها من قبل ، فحزحوا عن مكانتهم ، وانطمست شهرتهم ، وكان الموت لهم سائراً لو دفا منهم مناله ...!

منذ عهد مضى قدم « مصر » الكاتب الفرنسى العظيم « أندريه جيد » فدعى إلى أن يسجل حديثاً يرسله المذيع ، فلم تكد الأسماع تصغى إليه حتى استشعرت له هزة أسف وإشفاق ، ويروون عن الرجل أنه هو نفسه ما سمع حديثه فى المذيع حتى أخفى وجهه بين يديه ، وهمهم فى حسرة :

شدة ما نالت من عقلى السنون ...!

ومن يوازن بين مؤلفات الكاتب الروسى الكبير « تولستوى »

يرى البون شاسعاً بين آثاره في أوج فوريته وإبان نشطته ، وآثاره حين علاه الكبر وأدركه الكلال . فقد كان في عهده الأول كشافاً عن الطبع الإنساني الخالد ، يستوحى غرائز البشرية الباقية ، ثم انقلب في عهده الأخير خطيب منبر ينشد الوعظ والإرشاد . ولقد سئل الكاتب الأيرلندي « برنارد شو » رأيه في أديب معاصر كان وقتئذ على قيد الحياة ، فأجاب في سخريته المأثورة عنه : « مبلغ علمي أن هذا الأديب مات منذ عشر سنين ، ولكنه لم يدفن بعد ! ... »

فهل أحسن القدر بزعم الروس « ستالين » فهياً له منيته في الوقت الملائم له ؟ ...

بديه أن يتضارب الناس في الجواب عن هذا السؤال . خصوم الرجل يرونه قد تأخر به حينه ، حتى غلبه المرض على أمره ... فهم يحملونه وزر ذلك القلق السياسي الذي أطبق على العالم في الفترة الأخيرة . وعندهم أنه كان يتقمص في شخصيته عقلية موطنه الأصيل « جورجيا » ، وما يتصف به أهل هذا الموطن من إمرة واستبداد ، شأن الحكام الشرقيين الأول . وإذا كانت صفات هؤلاء الحكام قد أفادت الزعيم في مستهل الثورة الروسية فإنها غير صالحة لمسايرة العصر في حكم الشعوب ، منافية لما يجب أن يكون .

عليه توجيه السياسة الدولية في العالم كله ١ ...

وأما أشياع الرجل ومريده ، فهم يتحسرون على أنه قضى قبل أن يتم مهمته في إقرار الوضع الاقتصادي المرسوم ، وكانوا يرجون أن يطول عمره حتى يتم له تعميم ذلك الوضع ، في أرجاء المعمورة ، بأسلوبه العجيب ، ذلك الأسلوب الذي كان مزاجاً من : وعيد ، وإغراء ، ودهاء ! ...

وثمة رأى ثالث ينادى بأن الرجل قد مات في إبانه ، لم يستقدم ساعة ولم يستأخر . فقد اضطلع بواجبه في نشر مذهبه ، وفق مقتضيات بيئته ، وملابس عصره ، فأما وقد تغيرت النظرة ، وتبدلت الحال ، فلزام عليه أن يفسح لغيره الطريق ! ...
والذين يرون هذا الرأى يتساءلون :

أليس من الخير لذلك الوضع الاقتصادي الذي كان من رواده «ستالين» أن يتبناه اليوم زعيم جديد يبين الزعيم الراحل في خطة حكمه ، وأسلوب معالجته للمشكلات ؟ ... أليس حقاً على هذا الزعيم الجديد أن يخرج بذلك الوضع الاقتصادي عن الدائرة المضروبة عليه ، وأن يتخذ له طريقاً آخر يوائم روح العصر ؟ ...

هلا أخبرنا الزعيم الجديد : هل من جديد ؟ ...
وكيف لنا أن نرغب إلى الزعيم في أن يصارح بما في نفسه ،

والساسة إلى السكتان أقرب ، وعليه أحرص ؟ ...
ومالنا لا نستطاع صورة الزعيم الراحل ، وصورة ذلك الذى
خلفه على الزعامة ، عسى أن تهدينا السمات والملاح إلى استشفاف
الممكنون ؟ ...

أول ما يطالعنا من وجه الزعيم الراحل : شاربه ...! فلنأخذ
به ، فلطالما كان الشارب - فى عصور الشوارب واللحمى -
أصدق عنوان على مزاج الرجل ، وما له من طبع مكين ...!
هذا شارب « غليوم الثانى » ، والعهد به غير بعيد ، لقد كان
شارباً ممتلئاً ملتصعاً مسنون الأطراف ، يكاد فى تشاخه يتخذله سبياً
إلى السماء ، وإنه ليمثل « ألسانيا » فى مظهرها الحربى الغابر ، نزاعة
إلى السيطرة والنمك ، تعتاج بين جوانحها عنجمية وعناد ، وما لإخالك
تغلو إذا قلت بأن هذا الشارب هو المسئول الأول عن الحرب
العالمية الأولى ، وما خلفت من محن وويلات .

وهل يذهب عن الذاكرة شارب « جنكير خان » أو شارب
« نابليون الثالث » إلى غيرهما من شوارب ، كان إليها مرد ما لقيت
الإنسانية فى مختلف الأحقاب من أرزاء الحروب ، ولو أنعمت
النظر فى كل شارب منها لبارك لك أنه يحمل طابع صاحبه ،
ويكشف عن طوايا شخصيته .

لم يكن شارب زعيم « روسيا » الراحل يشذ عن هذه القاعدة بل إنه يريد لها دعماً وتوطيداً... فهو شارب غليظ مهذل ، لا يمسه التشذيب ، تنشعث أطرافه في ثورة وحنق ، وهو بذلك رمز واضح لشخصية « العامل » الروسي القديم ، شخصية « البروليتاري » الأصل ، ذلك الذي شق بحكم القياصرة ، وكابد عهد الإقطاع... ولعل السر في احتفاظ الرجل بشأربه ، وأنه لم يفرط فيه ، ولم يغير شيئاً من وضعه وشكله ؛ — أن « ستالين » ظل وفياً لمبادئه البروليتارية ، لا يجيد عنها قيد أكلة ، فأنت تستطيع أن تقول بأن « العامل » الروسي القديم بكل خصائصه متمثل في ذلك الشارب الشرسود ، فهذا « العامل » هو الذي كان يحكم « روسيا » في إهاب الزعيم الراحل « ستالين »...

ليست خصائص « العامل » الروسي القديم بخافية... فهو ذلك المجهود المنكود ، الذي استبطن الطغينة المتغلغلة للحكومة الرأسمالية الطاغية الباغية : سلبته كل ماله من حق ، وأذاقته الجوع والخوف والتغريب ، واتخذته المظالم هدفاً لا يملك لنفسه دفعا...

كانت خصائص ذلك العامل الروسي القديم هي الضوء الذي استهدى به « ستالين » في سياسته ، متخذاً من شأربه رقيباً على نفسه... فإن كان ثمة مسئول عن هذا المنهج الذي سار عليه الزعيم الراحل ،

في معالجة شئون بلاده وغير بلاده ؛ — فليس هناك إلا شارب
« ستالين » ! ...

فإذا ألقيت نظرة على صورة الزعيم الجديد الذي خلف الزعيم
الراحل على زعامة الروس ، رأيت وجهاً ممتلئاً مستديراً أمرد ،
عليه ملامح هادئة ، وإن تكن في نظراته عزيمة ومضاء ... هذا
الوجه يدلك أول ما يدلك على حياة التشبع والرخاء والاستقرار ،
ولم أنه لرمز واضح لذلك « البورجوازي » الروسي في عهده الجديد
ونظامه العتيق ! ...

ترى هل يكون لهذا « البورجوازي » الاشتراكي أثر في
توجيه السياسة وأصول الحكم ؟ ...

وهل حان أن يطالعنا وجه جديد لذلك الوضع الاقتصادي
الروسي الراهن ؟ ...

مهما يكن من أمر ، فلا بد أن خليفة « ستالين » يصبو إلى أن
تكون له زعامة حقة ، ولا ريب في أن الزعامة الحقة تتطلب الأصالة
والابتداع . فهي توزن بما يكون فيها من جدة وتألق ! ...

الزعيم الحق هو الذي يشق الأفق البكر ، ويشرع المنهج
الجديد ، فأما وفاء الخالف للسالف ، وارتسام الطريق في غير حيدة ،
فما هو إلا محاكاة وتقليد . والزعامة في جوهر معناها ثورة على

المحاكاة ، وانتقاص على التقليد ... ١

على أن المذاهب الاجتماعية لا يكون لها البقاء إلا حيث يتعاورها التطور والتجديد ، فكل مذهب جامد مقضى عليه بالاضمحلال والزوال ، وتلك حقيقة لا يقتصر حكمها على المذاهب . ولكن يشمل كل كائن حي وكل نظام مفروض ، فالابن إذا لم يصف جديداً إلى مجد أبيه ذهب اسمه أدراج الرياح ، والتلميذ إذا لم يزد على منهج استاذة كان غير جدير بالذكر ... ١

الحكمة الإنسانية تقضى بأن حجة الأمانة والحفاظة على التراث الماثورة حجة ضارة ، بل زائفة ، حين يراد بها استبقاء نظام عهد مضى لعهد جديد ... فالأمانة هنا ضرب الخيانة ، والحفاظة هنا مؤدية إلى الضياع ... ١

العالم اليوم يشخص بنظرته إلى خليفة « متالين » وهو يتربع على كرسى الزعامة في تلك الامبراطورية الضخمة ، وإنما النظرة تتساءل :

أ يكون الخليفة الجديد زعيماً حقاً له طابعه الخاص وشخصيته المستقلة ، في معالجة الأمر وتدير السياسة ؟ ... ٢

أم يكتفى بأن يلتمس له في ذلك الإطار القديم مكاناً يسكن إليه ، حيث ينسبط عليه من الزعيم الراحل ظل يخفيه ... ١٢

فلتَبَقِ المشنقة!...

لا تكاد تعرض مناسبة قريبة أو بعيدة حتى يتجدد الحديث عن عقوبة الإعدام ، فيطالب بالغاؤها فريق ، ويتصدى للدفاع عنها فريق آخرون ! ...

ولا ريب أن المطالبة بإلغاء هذه العقوبة تبدو أول وهلة طيبة الموضع من النفس ؛ لأنها استجابة لدافع إنسانى نبيل .
أنتولى بأيدينا حرمان الإنسان حق الحياة ، وهو حق مقدس ،
نبذل فى سبيله أقصى الجهود ، ونصونه بمختلف ألوان الرعاية والإعزاز ؟ ...

أتمارس جريمة القتل ، وهى شريعة الغاب ، حيث يتحكم سلطان الغريزة الضارية ، ويتغلب روح الانتقام الأثيم ؟ ...
وهذا المجرم المحكوم عليه بالإعدام ، أليس يعاني من العذاب النفسى والجسمانى مالا يلىق بمستوى تفكيرنا الاجتماعى الرفيع ؟ ...
ومن هو ذلك المسوق إلى المشنقة ؟ ... أليس هو إنساناً

مرضى النفس ، ضيق الأفق ، تدلى إلى الدرك الأسفل من اقتراف جريمة القتل البشعة ، تحت وطأة الملابس المحيطة به ، فكيف يكون التشريع السليم أضيق الأفق مثله ، يسيره فى بشاعة جرمه ؟ ... وكيف يلى قتله قضاء هو المثل الأعلى لحصافة الرأى ، وسمو القصد ، وحكمة الاعتدال ؟...

كل هذا حق ، ولكن الشريعة التى يراد لها أن تحكم البشرى يجب أن تكون شريعة واقعية تستمد من البشر طابعها الأصيل ، فلو اصطنعنا لهذا المجتمع شريعة ملائكية لما صاحت له ، بل لفسد المجتمع بها أيما فساد ! ...

انظر إلى هذا المجتمع البشرى نظرة عميقة ، تؤمن بأن القصص الطبيعية فيه ، وأنه نظام يسوده فى مختلف شؤنه ، ظاهرها وخافئها ، وأكد أقول بأن هذا القصص اص طبيعة للكون كله لا تتحول ، نظام لا يتخلف ، وصدق الله : « ولكم فى القصص حياة » ... !

فالإسلام حين أقر القتل بالقتل إنما أقره لأنه شريعة من السماء . تراءت فيها فطرة الخلق وطبيعة الإنسان ... !

يبد أن الشريعة الإسلامية حين تطابق الواقع البشرى ، وحين تلائم النفس الإنسانية ، لا تقف جامدة إزاء أحلام التطور الاجتماعى ، ولا تعيا عن متابعة درجات سمو الفكرى ، فإن

بها من المرونة والطواعية ما يتيح لها البقاء ، وما يجعلها شريعة كل زمان ومكان ! ...

ليس ذنباً للشريعة الإسلامية أن يتجافى وراثتها عن سنتها الواضح ، فإذا هم يَحْجُسُّرون الواسع . ويفلقون على أنفسهم باب الاجتهاد ، ويردون النصوص إلى موقف جامد في الفهم والتوجيه . لقد أقر الإسلام مبدأ القتل بالقتل ، للردع والترهيب ، مراعيًا ما فطر عليه الناس من غرائز لا بد من مواجهتها لصالح المجتمع ، ولكن الإسلام حين يضع المباوى القويمة يترك تنفيذها بحالا ذات سعة وحسب القاعدة التي تقول : ادرموا الحدود بالشبهات . فالمشرع العادل جدير إذا أن يحيط العقوبة الصارمة بما يجعل استعمالها محصوراً في أضيق المجالات ، وأن يشترط لتنفيذها ما يحقق المصلحة العامة ، وما يدارج الوعي الاجتماعي ... !

أجدى علينا إذن ألا ننس هذا المبدأ الحق ، مبدأ القتل بالقتل هفاننا في طوايا أنفسنا نعتقد أنه هو العدل ، وفي مستطاعنا أن نحد من غلوائه ، وأن نضيق دائرة الحكم به في التطبيق ، وبذلك نلأئم بين شعورنا الديني والبشرى نحو عدالة القتل بالقتل ، وبين ما يهفو إليه تفكيرنا الاجتماعي في معالجة المجرم ومكافحة الإجرام . ليست عقوبة القتل بالقتل وحدها هي التي يتحدث بعض

الناس عن قسوتها وصرامتها ، وينادون بالغائها ، فتنة في الشريعة الإسلامية أحكام تدور حولها الأحاديث وتتنازع الآراء ... هنالك مثلاً إباحة الطلاق ، وإباحة تعدد الزوجات ، فقد طالما نعى الناس على الطلاق أنه يهدم الأسرة ، وعلى تعدد الزوجات أنه جرح إلى شر اجتماعي وويل .

وفي معتقدي أن الشريعة حين أباحت حق الطلاق ، وحق تعدد الزوجات ، إنما أباحتها بشرط أن تتوافر لها مقتضيات ، فشأنهما شأن العقاقير السامة لا تؤخذ إلا بقدر ، ولا تباح إلا حين لا يكون منها بد ... إننا نقناول من العقاقير ما يسميه الأطباء « المضاد للحياة » ، أو « مبيد الحياة » ، وهم مع ذلك يصفونه لنا في بعض حالات المرض لكي تصح لنا الحياة ...

ربما كان أمر من الأمور في ذاته حقاً مباحاً ، ولكن القضاء الحصيف يعد هذا الحق المباح باطلا صراحاً إذا أسيء استعماله ، ومن ثم يتعين الحكم بالغائه ... ونحن في أحكامنا الإسلامية قد أسأنا استعمال كثير من الحقوق ، فاشتبه أمرها بالباطل ، وأسرعنا إلينا نعيها جاهدين ، والعيب في التطبيق لا في التشريع ...

ما أحوجنا اليوم إلى أن نعيد النظر فيما توارثناه من أحكام شريعتنا الإسلامية ، لا نقف عند النصوص المجردة ، ولا نكتفى

بالتفسيرات المتناقلة ، بل نفحص ونمحص ، حتى نحقق لكل حكم
ما يكفل له دقة التنفيذ ، وسلامة التطبيق ، مستهدفين بروح الشريعة ،
في إقامة مجتمع رشيد ...

لاخير لنا في أن يفتننا بريق الأوضاع المستحدثة التي ترد إلينا
من بعيد ، فنقلدها في غير تبصر ...

ولاخير لنا كذلك في أن نصدم مشاعر الناس بما يشككها
في قدس الشريعة ، وبما يمس أصولها الراسخة ...

ولأنما الخير في أن نعمق نظرنا في تلك الأصول التي هي من
وحي الفطرة البشرية ، ومن صميم وجودنا الطبيعي ، وأن نطوعها
لما تمخضت عنه عقلياتنا وتجاربنا في مجتمعنا الحديث ...
وإذن يمضي ركب الإصلاح ، آمنا من عثرات الطريق ...

فلنَفرضْ!...

كنت وأنا رخيّ البال ، أنعم بسابغ من الطمأنينة ، مشغولاً
بإقتناء ما يصدر من هذا اللون من الكتب التي شاع أمرها ، وفتن
القرّاء بها ، وتهافتوا عليها ... أعني تلك الكتب التي تبسط
ما يشقى به الناس من وساوس وأوهام ، وتعالج ما يعانون من
هموم وأشجان . وتهديهم إلى حياة جديدة مستبشرة كلها روح
وريحان ...

وكان يروعي أيما روعة ما تزخر به تلك الكتب من أساليب
عملية بالغة الطرافة ، وما تسلم إليه من نتائج بارعة فذة ، فإذا
بكتائب الهم والقلق تلوح لي مدبرة تلوذ بالفرار ، وإذا بهؤلاء
المهزومين التعساء من عباد الله كأنما قد انجابت عنهم المحنة ،
وانزاحت الغمة ، وغدوا ناشطين للسمي ، مقبلين على العمل ،
ويحدوهم أمل وضيء بسام ...

لقد آمنت لإيماننا لا يخالجه الريب بأن أولئك الجهابذة من

علماء النفس ورجال الفكر قد أنزلوا بهذا « القلق » المسكين
وجيع الضربات ، فقصموا ظهره ، حتى لا تقوم له قائمة من بعد...
فحمدت الله على أن البشرية قد تخلصت من ذلك العدو اللدود ،
وأن المجتمع اليوم قد أتيج له من الوسائل والأسباب ما يكفل له
الهناء وراحة البال ...!

لبثت على هذا الاعتقاد حيناً من الدهر ، وأنا من حياتي في
طمأنينة وأمن ، إلى أن زلت بي يوما نازلة دهياء ، فالفيتني بين
عشية وضحاها بطلا مغواراً من أبطال الهم ، وغطريفاً عظيماً من
غضاريف القلق ... فتذكرت من فوري تلك النخيرة النفيسة
من كتب علاج النفس ، ومقاومة اليأس ، وفزعت إليها أنشد فيها
بلسماً لما أجد ، وعكفت عليها ألثمت صفحاتها التهاماً ، لعل أجد
بين ثناياها عوناً ونجاة ، في ساعة عز فيها كل سبيل إلى العون ،
وانقطع فيها كل سبب إلى النجاة ...

وما برحت هائماً في صحائف تلك الكتب ، أتمعن وأنفهم
وأنظن ، حتى انتهى بي الأمر إلى أن طويت الصحائف في حقن ،
ونجيتها عنى في جزع ، ورحمت أنسامل وقد اشتدت بي الحيرة :
لمن كتبت هذه المؤلفات ؟ ... أكتبت لصبري الهوم حقاً
من ضاقوا بالحياة ذرماً ؟ ... أم كتبت لمن لم يعرفوا للقلق

طعما ، ولم تدهمهم في الحياة نازلة ؟ ...
ولم يغنى التماسؤل شيئاً ، بل لقد تفاقمت المشكلة في رأسي ،
وازدادت من تعقد ، وأخذت تنفث سمومها في كياني ، لتضعف
من هواجسي ، وأنا مائل حيالها في عجز وصغار ...
ونهمضت أذرع الحجر ، منسرح الفكر ، أحدث نفسي :
لم لا أحاول بوسيلة من وسائل الخاصة أن أحل مشكلتي ؟ ...
لم لا أعمل الرأي جاهداً في استنباط دواء جديد للهم والقلق ، لم
يهتد إليه قبلي أولئك المفكرون الأفاضل ؟ ...
وملكتني غيوبة صوفية عميقة ، وامتدت بي وقتاً لا أعرف
مداه ... فلما تاب وعي إلى ، ألفتني أتصاح في تهمل :
لقد وجدته ! ... لقد وجدته ! ...

نعم ، لقد اهتديت إلى « الإكسير » الشافي من كل لون من
من ألوان الهم والقلق ، فلا بقاء اليوم لحيرة أو اضطراب ... لقد
عثرت على « مفتاح السعادة » ... على « خاتم سليمان » ... على
« كلمة السر » التي لا تكاد الشفتان تلفظانها حتى ينفث الكنز
التمين ! ...

لقد كسبت الجولة ، وفزت بكأس البطولة ، وأصبحت قيناً
بأن أتبه على من سبقوني من عباقرة الفكر ! ...

هأنذا أناذى كل منكوب مكروب من صرعى الهموم
والأحزان ، لأخذ بيده إلى شاطئ الطمأنينة والأمان ...
فيا أخى فى البأساء ، ويارفيقى فى البلية : إليك أسوق الحديث ،
فأرهف سمعك لى وتفهم ما أنا قائله لك :
اعلم - علمت الخير - أن الله قد مهد لك طريق النجاة على يدى ،
وأنى منقذك من « جحيم » عيشك ، هاديك إلى « جنة » دنياك ،
لتنعم بصفو الحياة ...

إن هى إلا كلمة أسديها إليك ...
كلمة واحدة لا غموض فيها ولا التواء ...
كلمة يكمن فيها سر الحياة الحافلة بالهناء الحققة ...
لكأنى بك متوائب النظرات على هذه الأسطر ، لتقع عيناك
على كلمتى الموعودة .

لا تتعجلنى وأمهلى قلبى ، فالله مع الصابرين ؛
قبل أن أهمس فى أذنك بهذه الكلمة السحرية الشافية ، يطيب لى
أن أؤكد لك أنها لن تكلفك عناء ولا نصباً ، وأنها لا تمت بصلة
إلى نظريات علم النفس ، ووصايا علمائه النابذين ...
ليس ثمّة من تمرينات مرهقة ، تبتغى بها الإيحاء الذاتى ... تمرينات
تريدك على أن تقف حيال المرأة صباح مساء ، فإذا أنت ألعبان

جدين بالعمل في ملاهى التهريج ...

ليس ثمة من جمعيات أو تظاهرات أضربها في أذنك ، فتدفع
بك إلى الخوص في أعماق ما يصمونه « العقل الباطن » — بدعة
العلم الحديث — لتفتش في المسارب والمخاطف والليات من العقد
المستخفية ، والقوى المختبئة ، قابضة في قفاها المختومة ، ترتقب
مقدمك ، لتفك عنها قيود السحر ، وتطلقها من عقال الأسر ،
فتتمضى بك جبارة غاتية تصنع المعجزات ...

لا تحسبني أدعك تتورط في تلك المتاهات والمزالق ، فإنما
أنا مبعوث العناية الإلهية لكي أحميك من حماقات العلماء ، وأحفظ
عليك كرامتك الإنسانية من مزاعمهم المسرفة ، ولكي أهدى إليك
أؤمن ما في الوجود ، كلمتي الخالدة ، نصيحتي الرائعة ، أمنيته
الغالية التي تهفو إليها منذ عهد بعيد ...

أراك ناشراً أذنك ، مشرباً بعنقك ، تتأهب لتلقف تلك
الكلمة السحرية حين ألقي بها إليك ...

هاك كلمتي :

« فلنفرض » ...

كلمة « فلنفرض » ... فقط ...

« فلنفرض » ... وكفى ...

تلك هي كلتي أجهر بها مجلجلة مدوية...
أراك قد فمرت فاك من عجب ، وكأن عينيك تنتهانني في تساؤل...
أنت محق في تساؤلك وفي تعجبك ! ...
إنك تطالبني بالمزيد من الإبانة والإفصاح ! ...
لا يخيب مطلبك عندي ...
سأبسط لك شكوكي من أمثلة تجد فيها ما يشقى التليل ...
« أنت يا أئس ، أخفقف في امتحانك المدرسي ، فأظلمت فيه
وجهك الدنيا ، واعتزمت أمراً جلالاً ...
إنك تواجهني بقولك :
سأنتحر ! ...

— ولم تقتل نفسك يا أئس ؟ ... أما كان من المحتمل أن
تمرض ، فيحول المرض بينك وبين أداء الامتحان ؟ ...
— هذا محتمل ! ...

— إذن « فلنمرض » أنك — عافاك الله — قد مرضت بالحزن
الخفية الشوكية . فقدسدت اللطيق ، ولزمت القرائن بلا حراك ...
ففاتت عليك فرصة الامتحان هذا العام ! ...
« وأنت زوجة ضجرة ، ساءك أن يتعطل زوجك العائل ، وأن
تنضب مواردك ، وأن تضطرب لذلك سالفك ، وقد كان فيما سلفك

مطمئناً إلا عمله ، يكسب الكثير من المال ...

إنك تسبين الدهر ، وتسبين زوجك معه ...

اسمحي لي أن أسألك :

لو أن زوجك — أطال الله بقاءه — فاجأته المنون ، فانهطع

بذلك سعيه ، أفكان ذلك أجدي عليك من تعطله بعض حين ؟ ...

— كلا ...

— إذن ، فلنفرض ، أن زوجك ، لا حرمك الله ظله ، قد

طوته غياهب الآخرة ، فأصبح في تعطل أبدي ، أليس جديراً ،

وهذه حاله ، بالموفور من عطفك وحنانك ؟ ...

« وهذا رجل جهنم الملائح ، يمشي إليك ثقيل الخطو ، حتى يمثل

بين يديك ليقول :

أنا في يأس من أمرى ؟ ...

فتبادره بسؤالك :

وفيم يأسك يا صاح ؟ ...

— إنني رجل سوء ، لثيم الطمع ، سريع إلى الأذية والشر

أنعهد ذلك من نفسي ، وأعترف به ... ولقد ضقت بذلك كل

«الفضيق ، واجتهدت في أن أسلك سبيل الاستقامة ، وأنحو نحو

«الخير فلم أوفق ... فماذا تراني أصنع ؟ ...»

— هون عليك ... فالخطب أيسر من أن يدعوك إلى اليأس ...

— كيف ؟ ...

— اعلم يا صديقي أن صفاتك التي تنكرها من نفسك ، ليست إلا بعض صفات « إبليس » ... « فلنفرض » أنك « إبليس » عينه ، تسرح وتمرح ؛ لتفسد في الأرض ...
— أنا « إبليس » ؟ أنا ؟ ...

— كذلك أرادت لك الأيام أن تكون ، وهذا حظك من الدنيا ... فلتكن « إبليس » كرهت أو رضيت ...
« وذلك رجل يشكو امرأته جهد الشكوى ، فيقول لك في لهجة مريرة :

إن زوجتي لا تلقاني إلا مزججة كاشرة ؛ كأنها لبؤة تريد أن تنقض عليّ ، فلو كان لها أنياب لافتستني ، ومزقت جسدي إربا إربا ...

لك أن تقول لمحدثك على الفور :

إذن « فلنفرض » أنك تزوجت لبؤة حقاً ، لبؤة ضارية من البوادي والقفار ، بيد أنها بلا أنياب ...

— كيف « أفرض » ذلك وزوجتي إنسان مثلي ومثلك ؟ ...

— يا سيدى « فلنفرض » ... لماذا لا تتمثل نفسك قد
خرجت إلى الصيد والقنص فى فلاوة موحشة ، فتصدى لك أسد لم
تقو على مصاولته ، وهم أن يفترسك ، فتضرعت إليه أن يخل
سبيك ، فرضى أن يهب لك حياتك على شرط ...
— أى شرط ؟ ...

— أن تتزوج لبؤته ، لينجو عما تتعمده به من قحة وإيذاء ...
— هذا حديث خرافة ... هذا غير معقول ! ...
— « فلنفرض » أنه معقول ... كل ما هو غير معقول يغدو
معقولا فى مجال الفرض والتخمين ... توكل على الله ، وقل
« فلنفرض » ... واحد الأقدار على أن زوجتك ليست لها أنياب
الوحوش ! ...

« ودونك أخيراً رفيقاً لك يبدو متدمراً يتسخط ، فتسأله :

مالك ؟ ... كفى الله الشر ! ...

— لقد عييت بأمرى ...

— لماذا ؟ ...

— أحس بأنى أعيش فى « الجحيم » ...

— أليست لك خطايا وذنوب ؟ ...

— لا يخلو امرؤ من الخطايا والذنوب ...

— إذن « فلنفرض ، أنك انتقلت فعلاً إلى « جهنم » الحمراء
وأنت تقضى فيها حقبة التفكير والمتاب !

لقد سقت لك أمثلة ناصعة تستعين بها على فهم « فلسفتي »
الجديدة ، وهناك عشرات سواها بل مئات ، وإنك لتستبين منها
أن ليس ثمة مشكلة في الحياة يستعصى عليك حلها ، إذا عاجلتها في
ضوء تلك الفلسفة العملية الراشدة ...

هل آمنت بقولي ؟ ...

أقرأ على ملاح وجهك مخايل الشك ، وأسمعك تغمغم :
إن فلسفتك الجديدة — فلسفة « فلنفرض » — لا تمثل
إلا روح الهزيمة والخنوع ، روح الاستسلام للأمر الواقع ! ...
إنها فلسفة انهيار وفناء ، لا فلسفة نماء وبقاء ! ...

هذا قولك ، فكن صريحاً في إجابتك عن سؤال الذي ألقيه
عليك :

أأنت حقاً تؤثر لنفسك العافية والبقاء ؟ ... أم تتعجل لها
الانهيار والفناء ؟ ...

— أريد البقاء طبعاً ! ...

— إذن فلا سبيل لك إلا أن تتخذ من فلسفة « الفناء » سبباً

إلى بقائك على ظهر هذه الدنيا ، تنعم بالحياة وصحبة الأحياء ! ...
نصيحتي إليك يا صديقي أن تكون فلسفة « فلنفرض » نبراساً
لك ، يكشف الظلمة عن نفسك ، وينقذها من الحيرة والتيه ! ...
ليس أمامك إلا « الفروض » و « التخمينات » تتخلص بها
من حاضر القلق ، وترجى بها واقع الهم ، وتصنع منها دنيا جديدة
لك ... دنيا من نسج التغافل والإغضاء والهرب ، تتسامى بها على
دنياك الحائرة بك والمطبقة عليك ...
ضع يدك في يدي ، وانصح معاً بأعلى صوت :
فلتجى فلسفة « فلنفرض » ! ...

فلنَفرضُ!... أيضاً!...

لا تحسبني كنت هازلاً أو غائباً حينما تحدثت إليك عن فلسفتي الجديدة : « فلسفة فلنَفرضُ » ...!

لقد نصحت لك يا صديقي القاريء أن تكون فلسفة « فلنَفرضُ » نبراساً لك ، يكشف الظلمة عن نفسك ، وينقذها من الحيرة والتهيه .

لقد صارحتك بأنه ليس أمامك إلا الفروض والتخمينات ، تتخلص بها من حاضر القلق ، وواقع الهم . وتصنع منها دنيا جديدة لك ، دنيا من نسج الإغضاء والتغافل والحرب ، تتسامى بها على دنياك الحاققة بك ، المطبقة عليك .

لقد طالبتك بأن تقول كلما فابتك نائبة ، أو نزلت بك ملبة :
فلنَفرضُ ، وكفى!...

لم يكن قولي هذا دعابة متظرف ، لا أبغى من ورائه إلا الترفيه والتخفيف عن المكدودين الراحين تحت أثقال الحياة ، ومكارهاها الجسام ... كلا ياسيدي ، ما أنا بهازل أو غائب ، إنما

أنا صاحب فلسفة جديدة ، أو على الأصح صاحب دين جديد ،
أحمل إليك رسالته ، رساله الطمأنينة والأمن والدعة والسلام...
كلما تعمقت في تحليل « فلسفة فلنفرض » ازددت تعلقاً بها
وإيماناً ، إذ تتفتح أمامي مسالك جديدة ، جذيرة بالإشادة
والتنويه . وإنها كلها لتؤيد هذه الفلسفة ، وتؤكد أنها يحفزني
على أن أجهر على الملأ على الصوت بأن « فلسفة فلنفرض » إنما
هي فلسفة الحياة الحقة فلسفة الإنسان السوي ، كما أرادته الأقدار
أن يحيا على ظهر هذه الأرض ! ...

إن « فلسفة فلنفرض » لتتغلغل في كل مظاهر نشاطنا الذهني
والحيوي ... إنها الدعائم التي ترتفع بها الصروح السامقة من علم ،
 واجتماع ، واقتصاد ، وفن ! ...

أثمة نظرية من النظريات التي استقامت بها الأفهام والعقول
مهما تبلغ دقها في القياس ، أو الوزن ، أو التحديد ، أو التقنين ؛
لم يكن عمادها وقوامها الفرض والتخمين ؟ ...

العلماء يحدوثونا عن الذرة والكهرب ، وسرعة النور والسديم
وما إلى ذلك ، فإذا سألتهم أن يقدموا لنا برهاناً حسيّاً على صدق
هايزنبرغ ؛ — أعيانهم الجواب ، ولم تسعفهم آلاتهم بشيء ، وعجلوا
إلى القروض والتخمينات يستعينون بها على دعم ما يقولون ... !

قديمًا قالوا لنا : إن العالم كالرحى ، وأنه محمول على قرن ثور
حتى " ١ ... ثم زعموا أنه كروى على شكل البطيخة ، ثم ادعوا
أنه أقرب إلى الثمالة منه إلى أى شيء آخر ، وجاء أخيرًا من
يصحح هذا الرأى وأحسبه « أينشتين » — غفر الله له فروضه
وتخميناته — فيقول : إن العالم لا يبدو شكل « الخيارة »
أو بلغة السادة المهذبن ، شكل « السجار الهافانا » الفاخر . وأنه
يجرى فى مداره كالحلقة المفرغة ، أحد أبعاده العتيدة هو
الزمان ... ١

وما كان العلم فى كل ما قال إلا غارقا فى فروضه وتخميناته ،
وأخشى أن أقول فى تعريفاته . ويعلم الله ما يخبؤه لنا ذلك العلم
فى جعبته فى قابل الأيام من آراء ومزاعم ، فى شكل الأرض
والسماوات والنجوم ...

كل حقيقة علمية فى حياتنا الإنسانية كانت وليدة
« فلنفرض » ... ١

لولا أوهام الفروض والتخمينات لما كانت هناك حقائق
علمية على الإطلاق ..

لو لم يفرض العالم والباحث شيئاً غير موجود ، لما استطاع
العلم والبحث أن يضيف جديداً إلى الوجود ... ١

ولكننى أسمعك تقول :

مهما يكن من أمر العلم ، فهو إذا فرض ، كان مصدر فرضه وميزان تخمينه العقل البشرى ... ومن ينكر على العقل قوة منطقته وصحة أحكامه ؟ ...

وأنت تنسى أو تتناسى أن هذا العقل ، العظيم الذى ألهمنا حتى صلينا له وسبحنا ، ما هو إلا من صنع الفروض والتخمينات ، صغناه على هوانا ، ووفق مزاجنا ... وإلا فأخبرنى — يا رعاك الله — ما كنه هذا العقل ، ؟ ... كيف هو ؟ ... وأين هو ؟ ... على وجه التحديد الدقيق ! ...

من العسير يا صاحبي ، بل من رابع المستحيلات — كما يقولون — أن تدال بالبرهان الحسى الملموس على حقيقة من الحقائق ، وعللة الاستحالة أن الحقائق الخالصة لا وجود لها فى عالمنا القاصر ، فهى وهمية نسبية ، متغيرة بتغير الزمان والمكان ، والعقول والأفهام ... !

وإن المرء منا إذ لا يهوله هذا الأمر — أعنى خفاء الحقائق — وإذ يحس فى دنياه هذا الفراغ الخفيف ، ليراه يعجل إلى خياله يستمد منه العون ، فيمده خياله الخصب بتلك الفروض والتخمينات ، يحاول بها ملء هذا الفراغ ، وتجلية ذلك الظلام .

هو من ثم يحيا هائلاً بأوهامه العذاب ! ...

* * *

لقد بسطت لك في حديث الأسبوع السالف بعض « أمثلة
نظرية » أهدبها إلى زملائي في البلية والكرب ، يستعينون بها
على الخلاص مما يشغل كاهلهم من جسام المصائب ! ...
وهأنذا اليوم أقدم إليهم بعض « الوصفات » العملية لعلاج
مثالى لا تستطيع أمامه أشد الأمراض النفسية استعصاء على الشفاء
إلا أن تذوب متحللة أو تتطاير متبخرة ، فإذا النفوس راضية
تنعم بهناء واطمئنان ! ...

ودونك إحدى هذه « الوصفات » ...

زعموا أن شاعر فرنسا العظيم « فكتور هوجو » وهو فى
منفى بجزيرة « جرسى » كان يدأب على الذهاب أصيل كل يوم
إلى شاطئ البحر ، وقد ملأ جيوبه بالحصى بين صغير وكبير ،
ثم لا يلبث أن يقذف بهذا الحصى إلى البحر واحدة إثر أخرى ،
فإذا سأله سائل : لم تفعل ذلك ؟ ... بادر بالإجابة : إني أفذف
بهموى إلى البحر ! ...

فهذا الشاعر العظيم التمس وسيلة عملية للتخلص من همومه ،
بأن تخيل أن تلك الهموم ما هى إلا حصى أو حجارة يلقى بها إلى

البحر ، فيحس الراحة والصفاء ... !

فلم لا تتخذ من شاعر « فرنسا » العظيم مثالا نحتذ به في طرح
الهموم عن الكواهل ، والتخلص من مضايقات الحياة ؟ ...
مناطق الماء كثيرة في بلادنا ، والخصى لا عدده ، والرأى
عندى تيسير آ على من يشق عليه الذهاب إلى النيل أو أحد فروعه
أو قنواته أن يحتفظ في داره بطست أو إبريق أو أى وعاء آخر
يملؤه بالماء ثم يخف إلى الطريق يلتقط الحصى والحجارة ، ويعود
بها ليجلس جلسة رخية على ضفاف هذه الطسوت والأباريق يلقي
فيها بما جمعه ، فإذا همومه تنساقط عنه ، في غير عناء ...
وهناك « وصفة » أخرى ... !

أذكر وأنا في مقتبل الشباب أنى زرت يوماً صديقاً لى ،
فألقيته نأثر الأعصاب ، فسألته عما يضايقه ، فشكا إلى رئيسه في
« المصاحبة » ناعثاً إياه بالظالم المستبد ، إذ أوقع به عقاباً صارماً
دون مبرر ... فقلت له : دعك من التفكير في هذا الأمر ، ولنخرج
نطلب النزهة ، فتذهب متاعبك ومضايقاتك .

فمجل يقول :

لا أخرج قبل أن أصفى حسابى معه بحال ... !
وخف إلى خزانة له ، لجذب من أحد أدراجها سكيناً ضخمة

لها فصل حاد ، وأخذ يلوح بها في يده تلويح مبارز على أهبة النزول في المعترك ، ثم ما لبث أن قفز قفزة رائعة ، وانقض على وسادة ملقاة على المتكأ ، وما أسرع أن انهال عليها طعنًا حتى لم يعد فيها مطعن ... وما إن شفى غليله بهذا الطعن حتى رأيته وقد مضى إلى الخزانة يضع فيها المديية بعد أن مسح فصلها بمنديله ١ ...

ورجع ناشطاً طلق الأسارير يقول لى :

الآن أستطيع أن أخرج معك للنزهة في صفاء وراحة بال ! ...
فلم لا نزود دورنا بقدر وافر من هذه الوسائد تستقبل طعناتنا كلها حزينا الأمر ، واشتدت علينا مظالم الناس ؟ ...
إنها « وسائد الانقاذ » ١ ...

لزام أن نفسح لها مكاناً في كل ركن من أركان البيت ، كايفسح الربان في سفينته أرحب الأمكنة « لأطواق النجاة » ١ ...
ودونك « وصفة » نائلة :

كانت مربيتي المعجوز — وأنا في سن الصبا — تقص على قصة لطيفة أوعلى الأصح « أحدىثة » تشبه الأساطير ، هي قصة فتاة وجدت نفسها بين عشية وضحاها في مكان قفر لا أنيس فيه ولا جليس ، وعلمت أن عليها أن تقضى الأعوام على هذه الحال . فإذا احتملت أعباء الوحدة القاسية وآلامها المبرحة في صبر وأناة كان الجزاء عظيماً ١ ...

وقد نجحت الفتاة في تحمل مكاره الوحدة والوحشة ، حتى
ظفرت بالجائزة السنية ، فما ظنك بما فعلته ؟ ...
اتخذت لها عروساً من صلصال ، أقامتها في أحد أركان
حجرتها ، فكانت تفرع إليها عندما تضيق بال دنیا ، وتشتد بها
السامة والملال ... إذا أعوزها حنان الأمومة استلهمت من دُميتها
صفو الحنان فرضاً وتخميناً .
وإذا تفقدت رعاية الأبوة التمسها في هذه الدمية ، فكانت
لها أباً رحيماً ...
وإذا شاقها هو الصويحبات وثرثرتهن اتخذت من عروسها
صاحبة تطيل معها اللهو واللغو ...
كانت عندها أعز شيء ... إليها تشكو ، وبها تأنس ، ومنها
تستلهم الأمن والعون ...

* * *

حسبك هذه «الوصفات» التي تقوم على سياسة الفرض والتخمين،
تلك السياسة التي تتخطى بها كل عقبة ، وتحل كل عسير ! ...
اهتف إذن معي :
فلتحي « فلسفة فلنفرض » ! ...

سَرِّ بَطُولَةِ الْمَرْأَةِ ...

لو طلب إليّ أن أختار من أعلام النساء في الماضي آثرهن
هندي ، وأولاهن ياكبار وتقدير ، لما كان مني أي تردد في اختيار
امراتين ، تغني شهرتهما عن كل وصف ، وأعني بهما : « كليوباترة »
و « شهرزاد » ... !

كلتاها تمثل جوهر المرأة الأصيل ، أصدق تمثيل ، وإن كان
لكل منهما وسائل خاصة ، وطابع متميز ... !
لا تقاس البطولة بما يكون من جلائل الوقائع والأحداث ،
فمن الظلم أن تقصر عن الحروب والفتوح وإنما حق البطولة أن
تقاس بما يكون من نفاذ الشخصية ، وقوة التأثير ، وبلوغ الهدف
المرسوم ، فكل من يؤدي مهمته التي خالق لها على الوجه الأكمل
خليق أن يعدّ في الأبطال ... !

وإذن فلا غلو في القول بأن « كليوباترة » و « شهرزاد » تحملان
علم البطولة في عالم المرأة على وجه الزمان .

الأول : من صنع التاريخ ، والآخرى : من خلق الأساطير .
وقد يبدو هذا خلافا بينهما أكبر خلاف ، وهل ثمة مدى أبعد
من الخلاف بين حقيقة وخيال ؟ ... ولكنك لو تأملت ملياً ،
وتدبرت الأمر على وجهه ، لألفيت هاتين الشخصيتين تضيق
بينهما مسافة الخلاف ، ولبان لك في شأنهما أن ليس من فرق بين
الأسطورة والتاريخ .

أبطال التاريخ يتقدم عليهم الزمن ، فينسج حولهم شغوفاً
وغللاً ، تكاد تحجب سماتهم أو تحيلها سمات أخرى ، فإذا هم إلى
أبطال الأساطير أقرب ، وبهم أشبه ، وامل ذلك خير مكافأة
يغدقها عليهم الزمن المنصف المنيب . فكلما أشبهوا الأساطير توافر
محظهم من التوهج والخلود ، فإن حرم أحدهم تلك الهالات
الأسطورية ، بما لها من جدّة وطرافة ، ظل في محبسه التاريخي
المحدود ، لانتهاذه الحقب ، ولا تنهفو إليه العيون ...

أمل على نفسك من فورك أسماء اللامعين من أبطال التاريخ ،
في مختلف الجوانب والأنحاء ، من قديسين ومفكرين ومن شجعان
وعشاق ، وسل نفسك : أكان هؤلاء أن يحيا هذه الحياة
الموصولة الواجبة لو خلت شخصياتهم عما تلفت حولها على مدى
الأيام من شغوف الطرافة وغلل الإغراب ؟ ...

أما شخصيات الأساطير وأبطال الروايات ، فتحن نعدّها من صيد الخيال ، ونعني بذلك أنّها لم تكن في عالم الواقع ودنيا الناس . ولعمرك ما الخيال ؟ ... وهل هو إلا مرآة نستجيب فيها النفس لما يجيش في الحياة ؟ ... وهل هو إلا صدى لما يتردد في أرجاء الواقع من صيحة أو همس ؟ ... فهذا الخيال إذن لا يستمد صيداً إلا من عالم الواقع ودنيا الناس ! ...

على أن الشخصيات الأسطورية والروائية تتلقاها عبقریات الفنانين من الأدباء والكتاب ، فتثير فيها خفقة الحياة ، وتنفض عليها صبغة الآفة ، وتقيمها في مجتمع الناس أحياء متميزة ، لها من الكيان فوق ما لأبطال التاريخ من كيان .

سواء علينا إذن أبطال التاريخ وأبطال الأساطير ... فهم في البطولة أشباه ، وهم في تمثّلنا لهم : قريب من قريب ، وإنما يتفاضلون بمقدار ما أوتوا من جوهر الإنسانية الخالص ، فحق كان حظ أحدهم أوفر من تلك الخصائص الإنسانية الثابتة ، فهو على الزمان أخلد ، وهو في الحياة أبقي .

للبشرية في عمرها الممدود مشاعر وزعجات ، ولها مطامح وأهواء ، وعليها تتعاقب الحظوظ من مسرات وأشجان ، ولن تحتفظ البشريّة في سيرها مع الزمن إلا بذكرى أولئك الأبطال

الذين توى في حياتهم صورا من تلك الغرائز والنوازع وألوان
الحظوظ ! ...

في ضوء ذلك الاعتبار ، أنظر إلى « كليوبتر » و « شهر زاد » ،
« فآراما حقا » مثلين رائعين لبطولة المرأة على وجه الأرض . متقاربين
على الرغم من تخالف منبثيها في الأسطورة والتاريخ ! ...
في حياة هاتين الملكتين عصارة حجة لشخصية المرأة ، بل
رمز خالد لإنسانية « حواء » ! ...

وربما عز عليك أن أخص بالذكر هاتين المرأتين في عالم
النساء ، وكأني بك تسألني : أفأنتي ما سجل التاريخ من أبناء نسوة
كانت لهن بطولة حقة في العلم والأدب ، وفي الوطنية والجهاد ،
وفي شتى مناحي الخير ومرافق الإصلاح ؟ ...

لست أنكر من هؤلاء شيئا ، ولكني أومن بأن البشرية لا تخلو
من البطولة النسوية في التاريخ إلا ما يكشف عن خصائص الأنثى ،
ويبرز مهمتها الأولى في حياتنا الدنيا ! ...

إن الجاهيل لتحمس بعض وقت لأسماء نساء طلعت في
آفاق المجد ، مجاهدات أو مصلحات أو ذوات أدب وفن ! ...
ولكن ما أسرع أن يجرر النسيان أذياله على هذه الأسماء ، فلا تكاد

نذكر إلا في مقامات محدودة يشاد فيها بالفضائل والأجساد ، بغية الوعظ والارشاد ! ...

دونك مصداق ذلك في ذكرى « جان دارك » ... فانتظر أى مصير انتهت إليه بطولتها الرائعة ؟ ... هذه عذراء اجتمع بها شمل أمة كانت محزقة شرمزق ، وانبعث بها من الرقاد شعب طال به النوم ، فكان جزاؤها بعد ذلك كله أن جحدت الأمة صنعها العظيم ، وباعها الشعب للعدو بثمان بخس . ثم أبى أن يفنديها بمال زهيد ... وأكبر الظن أن رجال الدين — فيما بعد — فطنوا إلى أن هذه العذراء يوشك أن ينطفيء مصباحها في بطولة الوطنية والجهاد ، ففسحوا لها في مجالس القديسين مكانا يحميها من كفران الناس وظلم التاريخ ، فأحسنوا لها الوفاء وأجزلوا لها الجزاء ...

وإن « جان دارك » التى تفتقت عبقريتها في ميدان الحرب والضرب ، لتخلع الآن دروع الشجعان ، وتتخل عن ميادين القتال والصيال ، لتلبس مسوح العابدات ، معتكفة في الأديار ، خالصة للصلاة والتسبيح ! ...

البشرية لاتشيد بالأجساد إلا إذا لامت أهواء الأفتدة وسأيرت نزعات النفوس ! ... فبى محمد الأبطال أنهم يحققون ما تصبو إليه النفوس من عظمة وإمرة وما ربة ألوان . وما كان لهنده

البشرية أن تفضل بطولة امرأة في ميدان الجهاد والكفاح ، على
بطولتها في ميدانها الأصيل : ميدان العواطف والقلوب ! ...
ومن ثم تضاءلت في تيار الجهاد بطولة « جان دارك » ، إذا
قيست بما خصت به بطولة « كليوباترة » ، و « شهرزاد » من تألق
وازدهار ! ...

لا تردد قول الناس .

إن « كليوباترة » ليست إلا ملكة قامت شهرتها على الفتنة
والهوى ، وإن « شهرزاد » لا تزيد على أن تكون غانية أجادت
صوغ الأقاصيص ؛ لتخلب بها الآلباب ! ...
هذا قول ضحل ، وما كانت تلك الصفات لتتهض بها بطولة ،
وتتخاق بها بطلات ! ...

لا فتنة الجمال ولا سحر الجاذبية ، ولا خلافة الحديث ، —
بمجرته جميعاً في أن تهب المرأة بطولة ميدانها النسوى ! ...
سر بطولتها الخفة كامن في مقدرتها على فهم « الرجل » ، وعلى
اتخاذ الحيلة والوسيلة للاحتفاظ به ، وإن شئت تعبيراً أوضح
وأصرح ، فقل في غير موارد : إنه فن نصب الشباك للرجل ، حتى
يقع في الأسر ، فإن وقع لم يجد من الشباك سيلاً إلى الفكك ! ...
فأما رونق الحسن ، وحلاوة الأنس ، وطلاوة المنطق ،

وما إلى ذلك من صفات ومزايا : — فها هو إلا بعض أسباب
وذرائع ، تتفنن المرأة في استخدام ما يتسنى لها منه ، سلماً إلى
الهدف المرموق ، وقد يبلغ من تفنن المرأة حين تفقد بعض هذه
الصفات والمزايا أن تنزع من خصائص أنوثتها جديداً ، يشق لها
الطريق ، ويوفى بها على الناية ١ ...

ما كانت « كليوبتر » مثلاً رائعة الجمال ، ولو تصورنا أنها
تتقدم اليوم في المسابقات العالمية التي تعقد للحسان ، لكانت قينة
أن ترتد إلى أعقاب الصفوف ١ ... ولعل هذه المسابقات لو عقد
مثلها في عصر « كليوبتر » لما كان حظها بين أترابها من نساء ذلك
الزمن خيراً مما نعد لها اليوم من حظ ... ولكن الفاتنة الفرعونية
— على الرغم من ذلك كله — انعقد لها تاج البطولة النسوية زاهياً
يتألق . ولم تستطع الأحقاب المتطاولة أن تنال من تألق تاجها
وازدهائه ، على حين أن « ملكات الجمال » ، اللاتي يتوافرن
أرفع الحظوظ من الجمال الفينوسى ؛ — لا يطول بهن العهد على
عروشهن ، ولا يلبث صيتهن أن تطويه الليالي والأيام ، شبهات
يتلك التذائف التي تنطلق في الأعياد ملونة وهاجة ، يستشرف لها
الطرف حيناً ، وهي تستطع في الأفق ، وسرعان ما تتهاوى رماداً
تندروه الرياح ١ ...

كلما كانت المرأة أدنى إلى تحقيق ذلك الغرض الجوهري ،
غرض امتلاك الرجل والاحتفاظ به ، كانت مخرصة في تأدية
رسالتها الأنثوية ، مسايرة لخصائصها النفسية ، ظافرة بحقها في هذه
الحياة « دون بنى ولا عدوان ... »

ويخطئ من يرسم للمرأة خطة تيسر لها نيل ذلك المأرب ، فما
يخضع الأمر لقواعد وخطط ورسوم ، وإنما هي بصيرة للمرأة
الموهوبة ، تلك التي تهتم إلى ذروة البطولة النسوية ، بصيرة تعينها
على التقطن لما يتعلق به الرجل من رغباته ، والتعرف لمكان
الضعف من نفسه ، وإذن لا يتعاصى عليها أن تقود زمامه ...
إرضاء المعدة طريق إلى إخضاع الرجل ، وإثارة الغرائز فيه
طريق آخر ، وإيهامه بالسلطة أو الجاه طريق كهذين الطريقين ،
ولست بمستطيع أن تحصى ما هنالك من طرائق ، ولكنها كلها
موصلة إلى « روما » كما يقول المثل ...

والمرأة إذا تناولت الأمر في غير مبالاة ، وأخذته على غير
تدبر ، فهي امرأة فاتها أن تكتسب فن اصطيداد الرجل والإبقاء
عليه ، وإنه لفن عميق عويص ، يفتقر إلى دراسة ومراعاة ورهافة
حس ... ولكي تصل المرأة إلى « كلمة السر » في فهم رجلها
المختار ، وتكشف عن الأرقام التي تنفتح بها أفعال قلبه ، لابد لها

من عبقرية في سبر أغوار الرجل ، واستبطن محور أهدافه ...
وإن هذه المبقرية لمى مهر البطولة ، التي تعتلى بها المرأة أوج
المجد والفخار ...

وحاشاك أن تستهين بقدر هذه البطولة ، وأن تحسبها من
توافه الأشياء ! ...

بطولة المرأة في هذا النطاق ، رفيعة الهدف ، قوية الأثر في بناء
المجتمع ، فهي سبيل إلى تلك المؤاخاة وذلك التآلف بين الجنسين :
الرجل والمرأة ، لأنها للبيت عماد ، وللأسرة روح ، ولإنها الأكبر
عون للرجل على شق طريق الحياة ...!

دونك «حواء» نفسها ... سيدة المجتمع الأولى ... فيها
تتجمع زبدة خصائص المرأة الأصلية الخالدة ، ومن حياتها تنشق
شريعة النساء لكل زمان ومكان .

لمى أول من فهم نفسية الرجل ، واستبطن خفاياه ونوازعه ،
فكانت أقدام من سمن الأساليب لامتلاك الرجل والاحتفاظ به ...
وما عرفنا — فيما انتهى إلينا من الآثار أو الأساطير — أن فُسِّرَ قِ
وقت بين هذين الزوجين الأسبقين ، إذ عاشا عمرهما في رباط
موصول ...!

وفي حسابنا أن «آدم» كان فيه نزوع إلى خلاف ؛ إذ كان

هناك بالوحدة والحواء ، تعتلج في نفسه أشجان لا تستبين له ،
فعاجلت أمره « حواء » ، وأدركت ما بنفسه من زوع ، ومن ثم
سمعت سعيها حتى كسبت قلبه ، وضمنت حبه ، فأقامته على ظهر
الأرض أبا للبشر ! وصاحب حجر الأساس في صرح العمران ! ...
على عاتق المرأة تقوم مهمة توثيق الألفة واتصالها بينها وبين
الرجل ، ذلك عملها في الحياة ، وهودائرة اختصاصها الذي خلقت
له . فإذا انفصمت عروة الألفة بين رجل وامرأة ، فلا يخالجنك
ريب في أن المرأة هي العلة ، وعليها التبعة ... فإن كانت في هذه
السييل بريئة لم تجن ذنباً عن قصد ، ولم تسع إلى فُرقة على عمد ،
فلا أقل من أنها ليست بالذكية ولا بالفطنة ، ندرك مهمتها حق
الإدراك وتعالج أمرها على أحسن وجه ، وتستخدم واهبها الأصلية
في امتلاك الرجل والاحتفاظ به .

لا يقع في اختصاص الرجل امتلاك المرأة والاحتفاظ بها ،
وإن بدا ذلك منه في ظاهر الأمر ، فللرجل من شواغل العيش ،
ومطامح الحياة ، صارف له عن تلك الغاية ... في أعماق نفس الرجل
أنه خاق لتحقيق مثل بعيدة المدى في هذا المجتمع الذي يعيش فيه ،
فهو — في تقدير نفسه لنفسه — زعيم الحياة ، يناضل فيها ،
ويكافح لها ، ويسمو بها نحو الكمال ! ... ولذلك لا يقيس الرجل

بطولته إلا بمقياس الابداع التي يحوزها في مجال الفتح والتعمير
والاغتنام ! ...

ميدان الرجل هو الحياة بما فيها من جوانب رحاب ! ...
أما ميدان المرأة فهو هذه البضعة الصغيرة من اللحم والدم ...
هو القلب ... قلب الرجل ! ... وإنه على صغره وضآلته لدقيق
التركيب ، بعيد الغور ! ... وللرأة أن تزهو بامتلاك هذه الهناة
الضئيلة ، أكثر مما يزهو الرجل بامتلاك الكثير من عروض
هذه الحياة ! ...

ما قامت عظيمة دكليوبتره « و » شهر زاد ، إلا على هذه
العبقرية النسوية في فهم الرجل ... في امتلاك قلبه ... وما عظمتها
إلا تحقيق كامل لشريعة المرأة الأولى : « حواء » ! ...

دارت بطولة « شهر زاد » حول امتلاك رجل ، والاحتفاظ
به ، رجل وأى رجل ! ... طاغية سفاح ضربت شهواته كل
الضراوة ، فلم تستطع جمهرة العذارى اللواتي تعاقبن عليه أن
يكبحن جماحه ، حتى جاءت « شهر زاد » في عبقريتها وبطولاتها
تستبطن سره ، وتستكنه غوره ، فتصنع الممجة التي أعيت على
مسائر العذارى من قبل ! ...

ماذا صادف « شهر يار » عند أولئك العذارى في غفلتهن

وبلا هتهن ؟ ... لم تفهم واحدة منهن إلا أنها جسد يوهب ، ومتعة تسلب ، فكان « شهر يار » خليقاً أن يمل هذا المتاع الرخيص ، وأن يضيق ذرعاً بذلك القطيع من الشياه الذليلة البلهاء ، فلا يجد مفيضاً من تقديم رقابها طعمة للسيف المسنون ! ...

انطوت سريرة « شهر يار » على رغبة قوية ، في امرأة من طراز رفيع غير هذا الطراز .. فكانت هذه المرأة « شهر زاد » ، ليس الحب عندها مجرد بذل واستسلام ، ولا هو محض جفاء واستغلاء ، وإنما هو فن ... فن دقيق لا تباح أسرارهِ إلا للعبقريات من بنات « حواء » . فن المرأة في الحب : متى تهب ؟ ... وكيف تهب ؟ ... وبأى قدر تهب ؟ ...

وهم جسيم أن تحسب « شهر يار » استبقى « شهر زاد » تلك الليالي الملاح ، من أجل استكمال ماترويه من قصص ... ولا وربك لم تكن هذه القصص إلا رمزاً لفكرة الإغراء والاستهواء ، وذريعة لما تجلّى به فن « شهر زاد » ، في تصيّد قلب رجلها ليلة بعد ليلة ، والاحتفاظ به على تطاول الليالي :

ألف ليلة وليلة ... !

وأما « كليوباترة » فقد بدت عبقريتها في استدراج ملكين من أساسين الفتح والغلب في التاريخ ، متخذة لكل منهما ما يؤثم نفسه .

هذا «يوليوس قيصر» في أبهة مجده الحربى ، لم يبق أمامه
ما يصبر إليه ، فى بسط سلاطانه على رقاع الأرض . ولكنه كان
على ظمأ إلى أن يبسط سلاطانه فى ميدان آخر لعله كان عنده أشد
الاستعصاء من كل ميدان سواه ... فتغطنت «كليوبترة» إلى ممكن
تلك الغلة المستورة . أعنى رغبة القيصر فى أن يملك قلب امرأة...
المرأة لها مكانة «كليوبترة» ولها مالها من عبقرية وفن ، إقتضت
تسقى سمعه صفوا يشفى منه ذلك الظمأ ، ويقر فى نفسه أنه رجل
يلغ فى ذلك الميدان المنيع غاية المنى وفصل الخطاب ! ...

وجاء دور «أنطونيوس» وهو رجل مغامرات وابتذالات ،
فانسأقت «كليوبترة» معه فى تيار هواه ، طالبة ظفرا به ، وهيمته
عليه ، ولم تتمنع أن تكون معه غانية خليعة كاتمهو نفسه... غانية تترع
لما ألف من تلك الكأس التى تسكره وتأسره ، كأس الحب الرخيص !
فكان لها ما أرادت من امتلاك قلبه والاحتفاظ به ! ...

فسلام على «شهر زاد» ، و سلام على «كليوبترة» ، حين
نعرف بطولة المرأة قدرها بين ألوان البطولة ، فى شتى الميادين
للرجال والنساء ، وحين نفاضل بين بطولة تقوم على أساس امتلاك
«الرقاب» ، وبطولة تقوم على أساس امتلاك القلوب ! ...

التفهرس

صفحة

١٠	— قل يا رب ... انبها!	٣
٣	— النبي الإنسان	١٠
٣	— القراء ملحمة الفن ارفيع	١٥
٤	— العمامة ... قضية لرءوس العاربة	٢٩
٥	— من وحى المعركة : الشهيد المحمولى	٣٩
٦	— دستور المؤمن « المواطن الصالح فى ثلاث مواد »	٥٠
٧	— درس لا أنساه	٦٨
٨	— هل من مبارز ؟	٧٣
٩	— فن الاصضاء	٧٥
١٠	— آمنت بالحرب	٨٦
١١	— تطهير	٩٥
١٢	— كيف هزمت عدوى الأول ؟	١٠١
١٣	— نوبة فى عالم الفن : كتاب المستقبل	١٠٧
١٤	— اعترافى	١١٦
١٥	— القادة الطائفة ... رحلة صيف	١٢٢
١٦	— الفكرة الجديدة	١٦٨
١٧	— الشارب الذى حكم اميراطورية	١٧٨
١٨	— فلتشق المشقة	٢٨٦
١٩	— فلتفرض	١٩١
٢٠	— فلتفرض ... أيضا	٢٠٢
٢١	— سر بطولة المرأة	٢١٠

من مؤلفات «محمود تيمور»

(أ) مجموعات قصصية :

- ١ — كل عام وأنتم بخير
- ٢ — مكتوب على الجبين
- ٣ — شفاه غليظة
- ٤ — شباب وغافيات
- ٥ — إحسان لله
- ٦ — خلف الشمام
- ٧ — فرعون الصغير
- ٨ — بنت الشيطان
- ٩ — قال الراوى
- ١٠ — أبو الشوارب
- ١١ — دينا جديدة
- ١٢ — معبود من طين
- ١٣ — آخر حنا عجب

(ب) قصص مطولة :

- ١ — أيلوباترة في خان الحلبلى
- ٢ — سلوى في مهب الريح
- ٣ — نداء الجهول
- ٤ — شمروخ

(ج) صور وشواطر :

- ١ — ملامح وغنمون
- ٢ — التنى الإنسان
- ٣ — شهده الروح
- ٤ — عطر ودخان

(د) رحلات :

- ١ — أبو الهول يطير
- ٢ — شمس وليل
- ٣ — جزيرة الجيب

(هـ) قصص تمثيلية :

- ١ — صقر قرش
- ٢ — سهاد أو اللحن النانه
- ٣ — المنقذة
- ٤ — الخبأ رقم ١٣
- ٥ — الزيفون
- ٦ — فداء
- ٧ — عوالى
- ٨ — ابو شوشة والوكب
- ٩ — قنابل
- ١٠ — حواء الخالدة
- ١١ — اليوم غمر
- ١٢ — ابن جلا

(و) دراسات لغوية وأدبية

- ١ — مشكلات اللغة العربية
- ٢ — دراسات في القصة والمسرح
- ٣ — طلائع المسرح العربى
- ٤ — اتجاهات الأدب العربى في السنين المائة الأخيرة
- ٥ — معجم الحضارة (قاموس)

